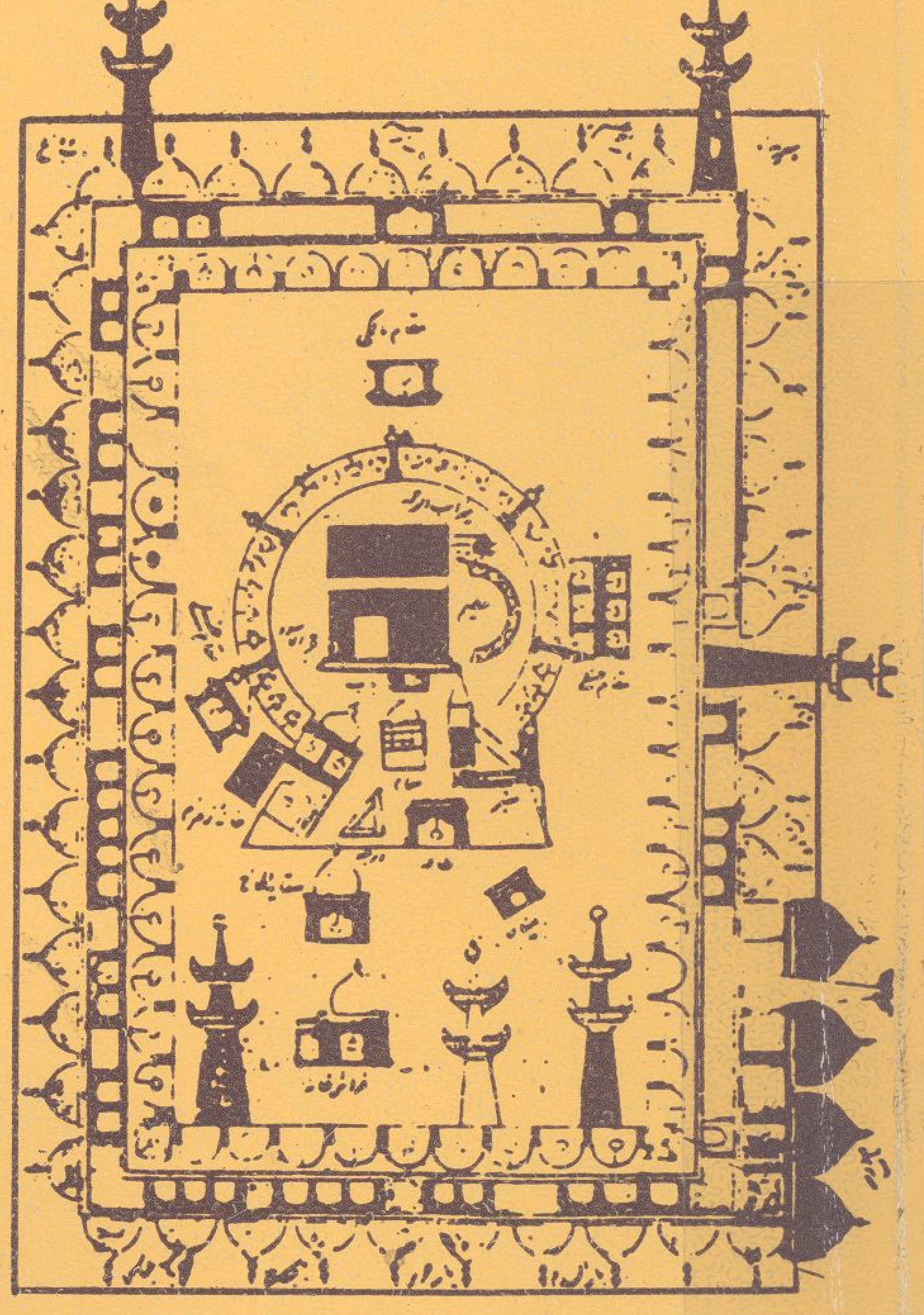



سينا للنشر

د. سيّد محمود القمني

الحزبُ الهاشميّ وتأسيس الدّولة الإسلاميّة



إهـــــــداء ٢٠٠٦

المرحوم / يوسف درويش

القاهرة

الحزبُ الهاشميّ

الناشر
سـينا للنشـر
المدير المسئول
راوية عبد العظيم

١٨ ش ضريح سعد - القصـر العينى
القاهرة - ج. م. ع - ت: ٣٥٤٧١٧٨

الحـزب الهاشمـى
وتأسيس الدولة الإسلامية

الطبعة الأولى ١٩٩٠

الغـلاف : عماد حليم
الإشراف الفنى : إيناس حسنى

د. سيّد محمود القمني

دور الحزب الهاشمي والعقيدة الحنيفية في التمهيد لقيام دولة العرب الإسلامية

مدخل إلى

قراءة الواقع الاجتماعي لعرب الجاهلية وإفرازاته الأيديولوجية



إهـــداء

إلى ينبوع الحنان؛

سلوى (نڤرتاري)؛

ابنتي .

هــذه الدراســة

.. هى من جانب تلقى ضوءا مبهرا على الفترة المتقدمة على ظهور النبى العربى محمد (صلى الله عليه وسلم)، والإرهاصات الأولى لنشوء دولة العرب الإسلامية بقيادته ، ومن جانب آخر فهى لاتجارى غالبية المؤرخين القدامى (ما خلا ابن خلدون وقلة قليلة) ، والمحدثين منهم حتى الآن، الذين لايرون فى التاريخ - على عمومه - إلا مسيرة غيبية لاهوتية ، تحركها إرادة الله تعالى - الذى هو فى غنى عن العالمين - ولاينظرون إلى التاريخ على أنه ظاهرة بشرية.

وأكدت الدراسة على أن مؤلفها يمتلك باقتدار ، نظرة موضوعية علمية ، فى معالجته لوقائع التاريخ ، ودراسته لها ، وتحليلها التحليل الصحيح، وردها إلى الأسباب المباشرة والتى تتفق مع المنطق والتفكير السليم ، دون حاجة إلى اللجوء إلى الماورائيات والفوق منطقيات والأحاجى والألغاز .. وهذا المنهج العلمى المحض، الموثق توثيقا شديدا، والاقتحام الجرىء الفذ لإنارة منطقة حرص من سبقوه على أن تظل معتمة ، هما اللذان أثارا عليه رموز السلفوية الحديثة .. والدكتور القمنى فى نظرى أحد الباحثين الجادين، المترهبين للعلم، والمتفرغين له، والذين لم ينالوا مايستحقونه من شهرة ، لأنه لايسعى إليها ولايعيرها التفاتا، فى الوقت الذى نرى فيه أنصاف المتعلمين، ممن كل بضاعتهم (صمّ) النصوص وترديدها.. يشغلون الصحف

والمجلات ومحطات الإذاعة وقنوات التلفاز، بمواعظهم المنبرية وأحاديثهم وخواطرهم، وفتاواهم المستقاة من النصوص التى تجاوزها الزمن ، وتخطاها الواقع المعاش، والتى ضلت طريقها إلى متاحف التاريخ وحفريات علماء الآثار.

الأستاذ الشيخ / خليل عبد الكريم
أدب ونقـد / أغسطس / ١٩٨٩

تأسيس (أ)

«إذا أراد الله إنشاء دولة خلق لها أمثال هؤلاء»- قالها عبد المطلب بن هاشم ، وهو يشير إلى أبنائه وحفدته ، فبرغم التفكك القبلي في بيئة البداوة، التي عاشتها جزيرة العرب، فإن هناك من استطاع أن يقرأ الظروف الموضوعية لمدينة مكة بوجه خاص ، وأن يخرج من قراءته برؤية واضحة ؛ هي إمكان قيام وحدة سياسية بين عرب الجزيرة، تكون نواتها ومركزها (مكة) تحديدا ، برغم واقع الجزيرة المتشرذم آنذاك.

وكان هناك من هو على رأي عبد المطلب من ذوي النظر الثاقب ، والفكر المنهجي المخطط الذين استطاعوا أن يصلوا إلى النتيجة نفسها؛ بعد قراءة واعية للخريطة السياسية ، والظروف الاجتماعية والاقتصادية ، لكن الكثرة الغالبة لم تكن مع هذه الرؤى ؛ حتى اليهود الذين كانوا يعيشون بين ظهراني العرب - كعرب - ما خطر لهم هذا التوقع قط ، وإنما كانوا يترفعون على سائر العرب، ويفاخرون بأن لهم من الأنبياء عددا وعُـدّة ، ومن الأسفار المقدسة كتاب سماوي المصدر؛ ومن ثم أجاز الأستاذ العقاد لنفسه - وهو رجل متزن ومتوازن - أن يجزم قاطعا ، «بأن شأن اليهودية في توضيح هذه الحقائق كان أعظم من كل شأن لها في جزيرة العرب»[1] ، وهذه الحقائق التي يعنيها الأستاذ العقاد هي أنه برغم عدم قراءتهم الصحيحة لإفرازات الواقع على الأقل بالنسبة لمكة؛ فإن حكاياتهم عن مغامرات

أنبيائهم القدامى، وعن دولتهم الغابرة التى أنشأها الملك النبى داود، وما لحقها من تهويلات ومبالغات، كانت وراء الحلم الذى داعب خيال سراة العرب وأشرافهم؛ حتى بدا لكل منهم طيف زعامته للدولة الموحدة، مشرقا فى الخيال، تدعمه مابدأت تشهده الجزيرة فى مناطق متعددة من محاولات لتوحيد القبائل سياسيا؛ سواء عن طريق التحالفات الجانبية التى شكلت نويات مرجوة لوحدة أكبر، أو عن طريق إخضاع قبيلة لأخرى، أو التحالفات التى تتفق ومنطق البداوة، والتى كانت تتم بين القبائل المنتمية إلى سلف واحد، مما يجعل انتظامها تحت إمرة زعيم واحد أمرا أيسر، خاصة عند حدوث جلل طارىء أو خطر مشترك، ولاتنسى المحاولات الأخرى المباشرة التى اتخذت صيغة الملك وصبغته؛ كمحاولة (زهير الجنابى) زعيم قضاعة تمليك نفسه على بكر وتغلب[٢]، أو الممالك التى قامت فعلا من زمن سابق لكن فى ظروف مختلفة على حدود الامبراطوريات الكبرى - مثل مملكة الحيرة، ومملكة الغساسنة.

لكن بقية الناس - حتى داخل مكة - ممن كانوا يعتبرون أنفسهم عقلاء لم يكونوا مع هذا التفاؤل، ولا مع هذا الجموح فى الآمال، فهذا الأسود بن عبد العزى يقدم الاعتراض البديهى والواضح والمباشر؛ قائلا: «ألا إن مكة لقاح لاتدين لملك»[٣]، وهو اعتراض يستند إلى قراءة أخرى؛ فالعرب أيًّا كان الظرف الاجتماعى - لاتقبل بفرد يملك عليهم ويسود ؛ لأن معنى ذلك سيادة عشيرة على بقية العشائر، وقبيلة على بقية القبائل، وهو ما تأباه أنفة الكبرياء القبلى وتنفر منه، ولعل هذه القراءة تجد حجتها البالغة فى تجربة رجل مثل النعمان بن المنذر، الذى ورث الملك أبا عن جد فى مملكة الحيرة، ومع ذلك وقف يلقى خطابه أمام كسرى الفرس، وفى حضرة وفود

دول عدة، مدافعا عن عروبته بقوله :

«فليست أمة من الأمم إلا وجهلت آباءها، وأصولها ، وكثيرا من أوائلها ، حتى إن أحدهم ليسأل عمن وراء أبيه دينا، فلا ينسبه ولايعرفه، وليس أحد من العرب إلا يسمى آباءه أبا فأبا، حاطوا بذلك أحسابهم ، وحفظوا به أنسابهم ، فلا يدخل رجل فى غير قومه، ولاينتسب إلى غير نسبه ، ولايدعى لغير أبيه.. وأما تحاربهم وأكل بعضهم بعضا ، وتركهم الانقياد إلى رجل يسوسهم ويجمعهم، فإنما يفعل ذلك من يفعله من الأمم، إذا أنست من نفسها ضعفا ، وتخوفت نهوض عدوها إليها بالزحف ، وإنما يكون فى المملكة العظيمة أهل بيت واحد ، يعرف فضلهم على سائر غيرهم، فيلقون إليهم أمورهم ، وينقادون لهم بأزمتهم، وأما العرب فإن ذلك كثير فيهم ، حتى لقد حاولوا أن يكونوا ملوكا أجمعين»[٤].

والخطاب هنا - سواء صحت نسبته للنعمان ابن المنذر أو لم تصح - لصاحب رؤية سياسية فذة : حاول أن يوضح - بإيجاز الظرف الاجتماعى العربى : الذى حال حتى هذا الوقت دون قيام وحدة سياسية كبرى لعرب الجزيرة ؛ ذلك الظرف المتمثل فى نظام قبلى، وعصبية عشائرية ، كانت من لزوم مايلزم عن شكل المجتمع البدوى غير المستقر، للإبقاء على دوام وجود القبيلة ؛ باعتبارها وحدة عسكرية مقاتلة يلزمها التماسك اللزج دوما والذى كانت مادته اللاصقة : رابطة الدم التى اكتسبت قدسية مفرطة ، وهو مايفسر الشكل الديموقراطى البدائى الذى تمتعت به القبيلة ؛ بحيث وقف جميع الأفراد داخلها على قدم وساق، بمساواة تامة ، وبمعيار الانتساب لأب واحد ، وذلك وحده كان كفيلا بإلغاء أى تمايز ، إضافة لظرف آخر دعم هذه

المساواة، وهو مواجهتهم جميعا للذات المصير دوما ، كمقاتلين.

والخطاب يوضح أيضا - بشكل وضاء - الأسباب التى لم تؤد بالنظام البدوى إلى إفراز مؤسسات سياسية (ملكية) متوارثة؛ لأن القبيلة وحدة عسكرية طارئة، وزعامتها بدورها أمر طارىء متغير ؛ تبعا لمقتضيات الصراع الناشىء وظروفه؛ تلك المقتضيات التى تحدد سمات الزعيم المطلوب آنيا ، وعليه فالزعامة كانت تمنح منحا لصاحب القدرات التى تناسب الظرف ومقتضياته، وهى صفات مكتسبة لاتنتقل بالوراثة ؛ على حين ينضوى الجميع فى الظروف الاعتيادية تحت لواء الأحكم ، الأكبر، الأكثر دراية والأكثر قدرة على المنح والعطاء، وفى كلتا الحالين تظل المساواة حاضرة؛ مما جعل البدوى واعيا تماما لفرديته ، مصرا على الاعتداد بنفسه؛ بإسراف تمثله دواوين العرب فى الحماسة، والفخر، والاعتزاز بالفرد أو بالقبيلة أو بالنسب.

وفى خطاب النعمان دعمٌ آخر لوجهة نظر الأسود بن عبد العزى ؛ فهو يؤكد أن الأمم إنما تقبل الخضوع للملك فرد فى وحدة سياسية، إذا «تخوفت نهوض عدوها إليها بالزحف». وقد أثبت الحجاز - ومكة بالذات - أنه بعيد المنال ، ولا يتخوف نهوض عدوه إليه، فبينما كانت الممالك العربية تحت الاحتلال أو النفوذ الأجنبى - ففقدت اليمن استقلالها منذ الربع الأول من القرن السادس الميلادى، وسقطت تحت حكم الأحباش ثم الفرس ، وفقدت مملكة الحيرة استقلالها وتحولت إلى إمارة يحكمها أمير فارسى، واضطربت أحوال المملكة الغسانية بعد أن قلب لها الرومان ظهر المجن - فإن منطقة الحجاز بمدينتيها الرائدتين (مكة ويثرب)، كانت تتمتع باستقلال نقى، هيأها له وضعها الجغرافى، ووعورة الطريق إليها؛ فكانت هى البيئة العربية الخالصة؛ البعيدة عن مجال الصراع الدولى، وعن التأثر بالحضارات

الأجنبية؛ بدون أن تفقد التواصل معها، ولم تخضع لحاكم أجنبي، ومع ذلك فلم تكن فيها ممالك بالمعنى الحقيقي، ولاوحدة سياسية كبيرة تنتظم أمر قبائل الحجاز جميعا، وهذا كله إنما هو دعم حقيقي لرأي الأسود بن عبد العُزى!

وإزاء كل هذه العوائق الواضحة، والمحبطات السافرة للحلم، وللأمل، وللتوقع، لم يجد الآخرون سوى الاهتداء إلى أنه لا حل سوى أن يكون منشيء الدولة المرتقبة نبيا مثل داود، وعندما وصلوا إلى هذا؛ فشى الأمر بسرعة هائلة بين العرب؛ حتى أشتد الإرهاص بالنبي المنتظر خلال فترة وجيزة، وآمن هؤلاء بذلك، وأخذوا يسعون للتوطئة للعظيم الآتي؛ وإن ظلت المشاعر القبلية داخل النفوس التي تهفو للوحدة؛ وظن كل منهم أن الآتي سيكون منهم؛ مثل (أمية بن عبد الله) الذي راودته نفسه بالنبوة والملك؛ فقام ينادي:

ألا نبي منا فيخبرنا ما بعد غايتنا في رأس محيانا؟

لكن العجيب فعلا ألا يمضي من السنين غير قليل، حتى تقوم في جزيرة العرب دولة واحدة بل دولة قوية ومقتدرة، تطوي تحت جناحيها - وفي زمن قياسي- ممالك الروم والعجم؛ بعد أن أعلن حفيد عبد المطلب بن هاشم محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) أنه النبي المنتظر!

هوامش تأسيس (أ)

١- عباس محمود العقاد : طوالع البعثة المحمدية، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٧٧، ص ٧٣.

٢- .ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ليدن، بريل، ١٨٨٦، ج١، ص٢٠٦.

٣- عبد الملك بن هشام : السيرة النبوية، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد ومحمد محيى الدين عبد الحميد، شركة الطباعة الفنية المتحدة، القاهرة ١٩٧٤، ج١، ص٢٠٦.

٤- ابن عبد ربه : العقد الفريد ،تحقيق د. عبد المجيد الترحيني، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط٣، ١٩٨٧، ص٢٧٧، ٢٧٨.

تأسيس (٣)

يقول الدكتور أحمد شلبى فى كتابه (السيرة النبوية العطرة) إن «أهم مصادر الثروة عند العرب ، ارتبطت بالتجارة ، وقد اشتهر العرب فى الجاهلية بالتجارة شهرة واسعة؛ حتى قيل إن كل عربى تاجر. وكانت الجزيرة العربية تمثل بحرا واسعا تخترقه قوافل الإبل فى شبه مجموعات من السفن؛ تمخر عباب البحر الفسيح، وقد حلّت هذه القوافل محل الملاحة بالبحر الأحمر الذى كانت فيه الملاحة عسيرة.. وكان هناك طريقان رئيسيان للقوافل؛ أحدهما من الشمال إلى الجنوب؛ وغير بعيد عن البحر الأحمر؛ وهو فى الشمال يتفرع إلى الشمال الشرقى تجاه سوريا، وإلى الجنوب الغربى تجاه فلسطين؛ وهو فى الجنوب يسير شوطا مع ساحل حضرموت، أما الطريق الثانى فهو يخترق الجزيرة العربية من البحر الأحمر إلى الخليج العربى مارا بمكة؛ ويتفرع فى قلب الجزيرة إلى فرعين : يتجه أحدهما إلى الشمال الشرقى فيصل شط العرب ، ويتجه الآخر إلى الجنوب الشرقى، ويسير مع الخليج العربى، مارا بدبى ومسقط وظفار. ولما وقعت اليمن فريسة الاستعمار الحبشى ثم الفارسى، استطاع المستعمرون أن يسيطروا على النشاط البحرى الذى انكمش انكماشا ظاهرا، أما النشاط البرى داخل الجزيرة ، فقد انتقل إلى مكة ؛ لأن نفوذ القوى الأجنبية لم يستطع قط أن يمتد إلى قلب الجزيرة»[1]

ثم إن الدكتور شلبى يعمد إلى إعادة تفصيل هذه المسألة فى موضع آخر من كتابه؛ فيقول : «إن هؤلاء البدو استطاعوا أن يلعبوا دورا مهما فى تجارة العالم، فى تلك الأزمان السحيقة.. ولم تكن سفن ذلك العهد تستطيع استعمال البحر الأحمر المملوء بالجزر، التى تجعل الملاحة خطرا عليها، ومن عيوب الملاحة فى البحر الأحمر أيضا أن شواطئه قليلة الموانى، وأن به كثيرا من الشطوط الضحلة، التى كان اقتراب السفن منها أمرا محفوفا بالخطر، ولم تكن السفن تستطيع استعمال الخليج الفارسى؛ بسبب وجود الفرس على ساحله الشمالى . وهم أعداء لسكان حوض البحر المتوسط . وعلى هذا أصبحت المواصلات البرية هى الطريق المهم للتجارة عبر البادية؛ بين الشمال والجنوب وبين الشرق والغرب . وقد حدد البدو أماكن للراحة والاستجمام طوال الطريق ؛ فكانت بمثابة محطات يتزودون منها بالماء والزاد ، وكانت أيضا بمثابة مخازن يودعون فيها بعض المتاجر؛ لتلحق بقافلة أخرى عبر طريق آخر»(٢).

ويضيف هنا الأستاذ أحمد أمين قوله: إن «طريق البحر لم يكن طريقا مأمونا، فالتجأ التجار إلى البر يسلكونه، ولكن طريق البر نفسه كان طويلا وخطرا؛ لذلك أحاطوه بشىء من العناية ؛ كأن تخرج التجارة فى قوافل ، وأن تسير القوافل فى أزمنة محددة، وطرق محددة»، ثم يشير إلى تحول هو جد خطير؛ برغم أنه كان ناتجا طبيعيا من تحول مكة من مجرد محطة على الطريق، تأخذ عشورها وضريبتها ؛ إلى حاضرة تجارية تظهر فيها طبقة من التجار تحتكر الأمر لنفسها فيقول :

«ثم انحط اليمنيون .. وحل محلهم فى القبض على ناصية التجارة عرب الحجاز، وكان ذلك منذ بداية القرن السادس للميلاد؛ **فكان هؤلاء الحجازيون** يشترون السلع من اليمنيين والحبشيين؛ ثم يبيعونها على حسابهم فى

أسواق الشام ومصر، وقليلا ماكانوا يبيعونها فى أسواق فارس ؛ لأن التجارة مع الفرس كانت فى يد عرب الحيرة، وجعل عرب الحجاز مكة قاعدة لتجارتهم، ووضعوا الطريق تحت حمايتهم[٣].

ومصداقا لقول الأستاذ أحمد أمين نجد الروايات الإخبارية تجمع على قيام (تبع) ملك اليمن فى وقت مبكر بحملة لإخضاع مكة ويثرب؛ كأهم المحطات التجارية على الطريق ، ويقول المسعودى: «وهو الملك السائر من اليمن إلى الحجاز ، وكانت له مع الأوس والخزرج حروب ، وأراد هدم الكعبة؛ فمنعه من كان معه من أحبار يهود » [٤]. كما تجمع هذه الروايات على عدد آخر من محاولات ملوك حمير التبابعة، لتوسيع نفوذهم وسيطرتهم على الخطوط التجارية فى أماكن مختلفة من الجزيرة ، ومنها قيام تبع بن ملكى كرب بتجريد حملتين: الأولى على طريق التجارة مع الفرس، وقصدت منطقة الحيرة، والثانية على طريق الشام مصر، وقصدت الحجاز[٥]؛ هذا إضافة إلى حملة الفيل المشهورة على مكة. ولعل الصراع الذى نشأ فى اليمن بين الديانة اليهودية والديانة المسيحية كان ناتج سعى الرومان للحد من نفوذ اليمن وسيطرته على الشريان التجارى ، وعادة ما اتخذ مثل ذلك الصراع أشكالا دينية ، وقد بدأ بلا جدال فى تحالف الحبشة - كمنافس لليمن - مع الروم، واعتناق المسيحية؛ من أجل دعم سيطرتها على الطريق التجارى، ثم ظلت اليمن محلا لاصطراع الروم والفرس، أو اصطراع المسيحية المدعومة من الروم واليهودية المدعومة من الفرس، لظروف اقتصادية بحت؛ حتى الفتح الإسلامى سنه ٦٢٨ م .

وقد فشلت الحملات جميعا على الحجاز ولم تحقق أغراضها . وما أن أطل القرن السادس على ربعه الأخير حتى بدأت المنافسة بين مكة ويثرب :

أهم محطتين فى الحجاز، تبدو أكثر وضوحا، وكان ممكنا أن تصبح يثرب صاحبة شأن خطير فى العصر الجاهلى، بحسبانها محطة مرور ضرورية يمر عليها الطريق التجارى القادم من مكة شمالا لولا دخولها مرحلة تمزق نتيجة الخلافات الداخلية التى ربما كان سببها تركيبها الهجين ، فبرغم تجانس السكان - فسكانها من الأوس والخزرج وبطون اليهود يعودون إلى أصول يمنية - فإن العامل الدينى ووجود اليهود فيها كان لاشك عاملا مؤججا للصراع الداخلى؛ حتى أشرفت على هلاك كامل؛ أدى بها إلى محاولة سبق لمكة ؛ فكادت تقوم بها مملكة على يد عبد الله بن أبىّ بن أبى سلول قبل الهجرة النبوية إليها[٦].

ولم تكن قريش بريئة كل البراءة مما يحدث فى يثرب ، وإنما أسفرت عن توجهها بالتحالف مع الأوس ضد الخزرج يومى معبس ومضرس، وهو مما يلقى الضوء على المستقبل القريب، عندما يتحالف أهل يثرب وعلى رأسهم الخزرج مع النبى (صلى الله عليه وسلم) ضد قريش ، ويفسر لنا التحالف الذى سبق ذلك بين عبد المطلب بن هاشم ممثلا لبنى هاشم ،مع الخزرج من أهل يثرب.

ومع نهاية القرن السادس الميلادى نجد مكة تقف على الطريق؛ مالكة لمركز رئاسى لاشك فيه ، بعد أن أتاحت لها الظروف الداخلية تجميع التجارة الخارجية فى يدها، وأتاحت لها الظروف الخارجية أن تستغل الأوضاع العالمية لصالحها، خاصة الصراع الدولى الهائل بين الروم والفرس فى الشمال والجنوب ، وهو الأمر الذى أعانها على القيام بأمر **تجارة العالم**، والنجاح فيه بكفاية ، أكسبت أهل مكة ثروة عظيمة ، فحظيت باحترام عربى عام ؛ حتى باتت مؤهلة للزعامة فى وقت أخذ فيه العرب يتطلعون إلى منطقة عربية مستقلة؛ تتولى زعامة النهضة العربية وتقودها، أو كما يقول الدكتور أحمد

الشريف: «أصبحت أهلا لأن تكون موضع النواة فى قيام نهضة قومية عربية، واطمأنت قريش إلى هذا المركز، وعملت على دعمه ، وحرصت على دوامه[٧].

هوامش تأسيس (٢)

١- د. أحمد شلبى : السيرة النبوية العطرة ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط١٢، ١٩٨٧، ج١، ص١٢٤.

٢- نفسه : ص١٥٣.

٣- أحمد أمين : فجر الإسلام ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط١٤ ،١٩٨٧، ص١٢و١٣ .

٤- المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، المكتبة الإسلامية، بيروت، د.ت، ج٢، ص٧٦.

٥- ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ج١، ص١٠٨.

٦- محمود الحوت : فى طريق الميثولوجيا عند العرب، بيروت، دار النهار، ط٢، ١٩٧٩، ص٥٩:٦٢.

٧- د.أحمد إبرهيم الشريف : مكة والمدينة فى الجاهلية وعهد الرسول، دار الفكر العربى، القاهرة، ط٢، ص٢٣٨.

الكعبات

هكذا تناثرت - فى الوسط الاجتماعى العربى - جماعات البشر على هيئة قبائل متنافرة؛ لاحكم فيها ولاسلطة إلا للعرف القبلى الذى يختلف بدوره باختلاف القبائل وظروفها. ومع تعدد القبائل تعددت المشيخات وكثر الشيوخ وأبطال الغزو؛ أولئك الذين تحولوا بعد موتهم إلى أسلاف مقدسين، وأقام لهم أخلافهم التماثيل والمحاريب، ليلتمسوا عندهم العون كلما حزّ بهم أمر أو حل بهم جلل، ومن أجل هؤلاء الصالحين السالفين : أقيمت بيوت العبادة، وشرعت طرق التقرب إلى الأرباب أو الأسلاف (الرب لغة هو سيد الأسرة أو القبيلة وهو بعلها)؛ ومن ثم تعددت الأرباب بتعدد الأبطال والصالحين الراحلين، وبتعدد الأرباب تعددت الكعبات : حيث كانت الكعبة (البناء المكعب) هى الصيغة المعمارية المفضلة لبيوت أرباب الجاهلية، وأحيانا أخرى كانت هذه الكعبات تقام تقديسا للأحجار الغريبة والنادرة؛ مثل الأحجار البركانية أو النيزكية، وكليهما كان يغلب عليه اللون الأسود نتيجة عوامل الاحتراق ، ونظن هذا التقديس ناتجا- إضافة لغرابة شكل الحجر- من كونه قادما من عالم غيبى مجهول؛ فالحجر البركانى مقذوف نارى - من باطن الأرض وما صيغ حوله من أساطير قسمته طبقات ودرجات، واحتسبته عالما لأرواح السالفين المقدسين - كذلك الحجر النيزكى، وربما كان أكثر جلالا، لكونه كان يصل الأرض وسط مظاهرة احتفالية

سماوية تخلب لب البدوى المبهور؛ فهو يهبط بسرعة فائقة محتكا بغلاف الأرض الغازى؛ فيشتعل مضيئا ومخلفا وراءه ذيلا هائلا، لذلك ؛ كان هول رؤيته فى التصور الجاهلى دافعا لحسبانه ساقطا من عرش الآلهة فى السماء؛ حاملا معه ضياء هذا المكان النورانى؛ ثم كان طبيعيا أن يحاط بالتكريم والتبجيل.

ومع كثرة الأحجار القادمة من عند الأسلاف، أو الهابطة من السماء؛ كثرت أيضا الكعبات. وعن الكعبات ومحجبات العرب يقول الباحث محمود سليم الحوت: «يجب ألا يخطر على بال أحد أن مكة - وإن ارتفعت مكانتها عن سواها من أماكن العبادة - هى القبلة الوحيدة فى الجزيرة ؛ فقد كان للعرب كعبات عديدة أخرى تحج إليها فى مواسم معينة وغير معينة، تعتر (تذبح) عندها، وتقدم لها النذور والهدايا، وتطوف بها ، ثم ترحل عنها بعد أن تكون قد قامت بجميع المناسك الدينية المطلوبة»[١].

وقد اشتهر من بيوت الآلهة أو الكعبات ماوجدنا ذكره عند الهمدانى (بيت اللات، وكعبة نجران، وكعبة شداد الإيادى، وكعبة غطفان)[٢]، وماذكره الزبيدى (بيت ذى الخلصة المعروف بالكعبة اليمانية)[٣]، وما جاء عند بن الكلبى (بيت ثقيف)[٤]، إضافة إلى ما أحصاه جواد على (كعبة ذى الشرى، وكعبة ذى غابة الملقب بالقدس)، ومحجات أخرى لآلهه مثل (اللات، وديان، وصالح، ورضا، ورحيم، **وكعبة مكة**، وبيت العزى قرب عرفات، وبيت مناة)[٥]، هذا مع ماجاء فى قول الأستاذ العقاد عن«..البيوت التى تعرف ببيوت الله أو **البيوت الحرام**، ويقصدها الحجيج فى مواسم معلومة تشترك فيها القبائل..وكان منها فى الجزيرة العربية عدة بيوت مشهورة، وهى بيت الأقيصر، وبيت ذى الخلصة، وبيت رضاء، وبيت

نجران، وبيت مكة.. وكان بيت الأقيصر فى مشارف مقصد القبائل؛ من قضاعة ولخم وجذام وعاملة . **يحجون إليه ويحلقون رؤوسهم عنده**.. فالأمر الذى لا يجوز الشك فيه أن البيوت الحرام وجدت فى الجزيرة العربية؛ لأنها كانت لازمة.. وقد اجتمع لبيت مكة من البيوت الحرام مالم يجمع لبيت آخر فى أنحاء الجزيرة؛ لأن مكة كانت ملتقى القوافل: بين الجنوب والشمال، وبين الشرق والغرب»[٦]. ويفهم من العقاد أن هذه البيوت كانت محرمة ولها أيامها الحرام، لكن بيت مكة بالتحديد أخذ فى التمايز؛ لموقع مكة العظيم على طرق القوافل التجارية جميعا؛ حتى جاء وقت - كما قلنا- أصبحت فيه مكة ملتقى تجارة العالم، وأصبح أهلها أهم تجار الدنيا .

ويمكننا هنا التمييز بين مفهوم العربى الجاهلى لمعنى الألوهية ومعنى الربوبية؛ فالألوهية تعنى إلها غير منظور يسكن السماء، ومن هناك يتساقط ملاطُ بيته الإلهى من آن لآخر؛ على هيئة أحجار سوداء، فى حين أن الربوبية تشير إلى تقديس للأسلاف يتفق حجمه مع أهمية رابطة الدم عند العربى البدوى. وعلى هذا النحو؛ عبد النبطيون حجرا أسود: يرمز إلى الشمس كإله للسماء[٧]، وعبد الهذليون حجرا أسود يرمز لمناة، وكان ذو الشرى حجرا أسود، وكذلك كانت الكعبة المكية إطاراً لحجر أسود[٨]، كما كانت باقى الكعبات تتسم بذات السمة؛ فهى أطر لأحجار سود. وسميت هذه الكعبات بيوت الله؛ لأن كل بيت منها فيه حجر من بيت الإله الذى فى السماء؛ تمييزا له عن الأرباب التى لم تكن سوى مجرد تماثيل أو أحجار بركانية توضع فى أفنية الكعبات؛ انتفاعا ببركات الأسلاف الصالحين، وتشفعا بهم عند إله السماء.

وواضح لدى أى باحث أن هذا التفرق العقائدى، وتعدد العبادات

والأرباب؛ قد ساعد بفعالية فى زيادة الفرقة القبلية، بحيث أصبح عائقا دائما ومستمرا فى سبيل المحاولات التى قامت من أجل خلق كيانات سياسية فى جزيرة العرب؛ إضافة إلى الطبع القبلى الذى يأنف كبرياؤه وينفر من فكرة سيادة سياسية واحدة- تلك المحاولات التى سبق أن أشرنا إليها - مثل محاولات زهير الكلبى، وعبدالله بن أبى، وكندة، والغساسنة، والمناذرة، وكان الدافع إليها جميعا حلم وأمل أججه الشعور الآتى بإمساك عنان تجارة العالم، ووجود هذا العالم مسترخيا ينزف فى حروب طال مداها بين الإمبراطوريات الكبرى .

ولايفوتنا الإشارة إلى أن مثل هذه المحاولات اتسمت بروح العصبية العربية الخالصة التى تجلت بدءاً فى اعتناق المناطق العربية الواقعة تحت النفوذ الإمبراطورى؛ أيديولوچيات أو مذهبيات دينية تخالف مذاهب الإمبراطوريات؛ حتى بلغ الطموح مداه فى هجمات عربية متفرقة - لكنها شرسة - كراً وفراً؛ على حدود الدول العظمى؛ إلى درجة أن الشعور العربى بلغ أوجه؛ متمثلاً فى فرح عام بالجزيرة كلها، عندما أنكسر الفرس بعظمتهم وجبروتهم أمام حلف عربى صغير لقبائل شيبان وعجل وبكر بن وائل؛ فى وقعة ذى قار[9]؛ مما دفع بالحلم إلى الخروج من ساحة التمنى إلى ساحة التوقع؛ وربما التحقيق؛ مرهونا بشرط واحد هو تحالف وتوحد كتوحد العرب فى ذى قار؛ ذلك التحالف الذى بدأت تباشيره فى شعور عام دفع الوفود القبلية من كل صوب وحدب، إلى أن تحث خطاها بين الفيافى والقفار نحو اليمن؛ لتهنئ معد ابن يكرب أو سيف بن ذى يزن بطرده الأحباش، وبعودة الحكم العربى إلى اليمن.

هوامش الكعبات

١- محمود الحوت : فى طريق الميثولوچيا عند العرب، ص ١٣٣.

٢- الهمدانى : الأكليل، بغداد، ١٩٣١، ج٨، ص ٤٨.

٣- الزبيدى : تاج العروس، القاهرة، ١٣٠٦هـ، ج٢، ٢٧١.

٤- الكلبى : الأصنام، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢، ١٩٢٤، ص١٦.

٥- د. جواد على : المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، المجمع العلمى العراقى، بغداد، د.ت، ج٥، متفرقات صفحات : ١٨٠، ١٥٢، ١٥٣، ٢١٧، ٢٢٤.

٦- العقاد : طوالع البعثة المحمدية، ص ١٣٠ و ١٣١.

٧- د. خليل أحمد خليل : مضمون الأسطورة فى الفكر العربى، الطليعة، بيروت، ١٩٧٧، ص٤٣.

٨- الحوت : فى طريق الميثولوچيا عند العرب، ص٥٩ : ٦٢.

٩- ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، ج١، ص٢٠٠.

مكة : حلم السيادة

وقد لعب جدل السياسة الدولية، وما تبعه من تغيرات هائلة على المستوى الاقتصادي؛ دورا خطيرا لصالح عرب الجزيرة؛ وبخاصة في يثرب ومكة؛ حيث أخذت أوضاع الخط التجارى تضطرب وتتقلب؛ مما أثر على بنية التركيب الاجتماعى فى المدينتين؛ وبخاصة مكة التى تطورت كمحطة مرور على طريق القوافل التجارية، حتى أضحى أهلها فى حالة تناقض مع الشكل الاجتماعى البدوى المتفكك وغير المستقر؛ فبدأت تدخل مرحلة تحولات بنيوية واضحة فى تركيبها الاجتماعى، وبدأت تضمحل فى داخلها التركيبة القبلية، مع إفراز جديد لمواقع سلطة ومؤسسات لم تكن موجودة من قبل، وهو إفراز طبيعى للاستقرار والملكية، وما يتبعه بالضرورة من صراع حول امتلاك وسائل الإنتاج، ثم السلطة السياسية؛ بعد أن اشتدت الحاجة إلى استقرار أمثل، للقيام على شئون هذا العمل التجارى الهائل، وتقسيم الأدوار حول هذا العمل، ثم الحاجة إلى حراسة وحماية قوافل التجارة التى أصبحت تجارة المكيين أنفسهم، وأموالهم هم، وتوفير جو من الأمن العام، وما يترتب على ذلك من ضرورة إنشاء جيش منظم للقيام بالأمر؛ كان أهم عناصره وركائزه طبقة العبيد، ومن ثم كان حتميا أن يتطور المجتمع المكى من مجتمع يعيش ديموقراطية ومساواة بدائية إلى مجتمع متمايز طبقيا.

ويشرح لنا الدكتور أحمد الشريف ظروف المجتمع المكى من الداخل:

فيقول : «.. غير إن الثروة لم تكن موزعة توزيعا عادلا؛ فقد كانت الهوة بين الأغنياء والفقراء كبيرة من الناحية الاقتصادية .. وكان التفاوت الطبقى موجودا على الرغم من الإحساس بالقرابة، ووجود علاقات الحلف والولاء، وعلى الرغم من الإحساس النفسى العام بالمساواة - ومتمثلا فى الفروق الواضحة بين طبقة الصرحاء وطبقة الموالى، بالنظر إلى ما كانت تكفله الثروة وشرف البيت لصاحبها؛ من تأهيل للدخول فى مراكز القيادة والزعامة.. وكان العرب يتطلعون إلى مثل جديدة فى الأخلاق والاجتماع تساير الطبع العربى..»[1].

وعليه فقد تهيأت مكة لإفراز عناصر قيادية عربية ، كما قدرت أحداث الجدل الدائر للكعبة المكية أن تكون الكعبة الأولى والمحج الأقدس؛ دون غيرها من الكعبات، وساعد على ذلك أسواق مكة المختلفة ومواسمها المتنوعة التى وضعت لجذب التجار؛ ثم انتشرت لغة قريش وعاداتها بين القبائل الحالة والمرتحلة؛ بعد أن حتمت مصالح القرشيين التجارية عليهم اليقظة والاهتمام بما يجرى حول جزيرتهم من أحداث ، لتأثير هذه الأحداث المباشر على ما بأيديهم، وكان هذا الوعى دافعا لنزعة قوية من التسامح الدينى، ولنضوج ميزهم عمن حولهم من أعراب ؛ فاستضافوا فى كعبتهم المكية الأرباب المرتحلة برفقة أصحابها التجار وقاموا بتبنى هذه الأرباب تدريجيا فكان أن تركها أصحابها فى كعبة مكة، ليعودوها فى مواسمها؛ فكثرت المواسم المكية بالاحتفالات الدينية بالأرباب المختلفة ، وكثر أيضا الخير والبركة من التجارة ، وكان حتميا أن تهفو قلوب العرب وتجتمع عند كعبة فيها أربابهم ومعاشهم وأمنهم ومرحهم وسمرهم، وأن يضمحل بالتدريج شأن بقية الكعبات التى توارت فى الظل ثم فى الزوال حتى طواها النسيان.

وكان موقع مكة الجغرافى بعيدا عن يد البطش الامبراطورى(فارسية أو رومانية)، إضافة إلى حالة الضعف والانهيار التى أصابت هذه الإمبراطوريات؛ مع الفشل الذريع الذى مُنيت به المحاولة اليتيمة من روما لضرب مكة كمركز تجارى قوى بواسطة جيش أبرهة الحبشى فى عام الفيل، عوامل مجتمعة ساعدت على صعود النجم المكى واتساع السطوة المكية؛ مما أعطى القرشيين الضوء الأخضر للقيام بالدور التاريخى الذى حتمته الظروف عليهم؛ خاصة بعد أن تدهورت اليمن مرة أخرى ، وأصبحت قاصرة عن القيام بهذا الدور، وانتهت كتابع للدولة الفارسية.

وإن ارتفاع النجم المكى وصعوده بعد حملة الفيل، أمر يحتاج إلى الوقوف معه وقفة سريعة؛ توضح لنا إلى أى مدى بلغ أمر قريش فى نفوس القوم، إلى الحد الذى دفع العرب جميعا إلى رجم قبر أبى رغال؛ دليل الجيش الغازى ، وإلى الاعتقاد الواثق برب الكعبة المكية الذى صد عن بيته جيشا ماكان ممكنا أن يصده العرب؛ تلك الثقة التى تجلت فى الاعتقاد بأن جيش أبرهة قد تعرض لهجوم جوى فريد فى نوعه، إذ أرسل الله على الجيش طيورا ترميه بالأحجار. وينقل السهيلى عن النقاش «أن الطير كانت أنيابها كالسباع، وأكفها كأكف الكلاب، وذكر البرقى أن ابن عباس قال: أصغر الحجارة كرأس الإنسان، وكبارها كالإبل» وهذا الذى ذكره البرقى ذكره ابن إسحق فى رواية يونس عنه ، وفى تفسير النقاش أن السيل احتمل جثثهم فألقاها فى البحر[٢]. وبهذا الاعتقاد أرسل (رؤبة بن العجاج) رجزه قائلا:

ومسهم مامس أصحاب الفيل ترميهم حجارة من سجيل
ولعبت بهم طير أبابيل فصيروا مثل عصف مأكول[٣]

ويروى ابن هشام فى متن شرح السهيلى للسيرة، «.. وكان اسم الفيل

محمودا، فلما وجهوا الفيل إلى مكة أقبل نفيل بن حبيب حتى قام إلى جنب الفيل، ثم أخذ بأذنه فقال: ابرك يامحمود، أو ارجع راشدا من حيث جئت فإنك فى بلد الله الحرام، ثم أرسل أذنه ؛ فبرك الفيل، وخرج نفيل بن حبيب يشتد حتى أصعد الجبل، وضربوا الفيل ليقوم فأبى ، فضربوا فى رأسه بالطبرزين ليقوم فأبى، فأدخلوا محاجن لهم مراقة فبزغوه بها فأبى، فوجهوه راجعا إلى اليمن فقام يهرول. فأرسل الله عليهم طيرا من البحر أمثال الخطاطيف والعبسان، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها؛ حجر في منقاره وحجران فى رجليه؛ **أمثال الحمص والعدس** لاتصيب منهم أحدا إلا هلك»[٤].

وابن نفيل صاحب هذه الكرامة، تمتد كراماته فى التراث لتلحق حفيده (عمر بن زيد بن نفيل) على ماسنرى، وابن نفيل يسجل شهادته على ماحدث بقوله:

حمدت الله إذ أبصرت طيرا وخفت حجارة تلقى علينا [٥]

وذات الحديث هو أيضا مادفع عبد الله ابن الزبعرى ليرسل شعره قائلا:

تنكلوا عـــن بطـن مكة إنهـــا كانت قديمـا لايـرام حريمـهـا
لم تخلق الشعرى ليالى حرمت إذ لاعزيز من الآنام يرومـــهـا
سائل أمير الجيش عنها مارأى ولسوف ينبى الجاهلين عليمها
ستون ألـفا لم يئوبـوا أرضـــهم ولم يعش بعد الإياب سقيمـها[٦]

أما عبد المطلب بن هاشم زعيم قريش أوانذاك فقد نصح بعدم التعرض لجيش أبرهة ، وبأن يترك مكة أهلها إلى شعاب الجبال ، ثم توجه إلى أبرهة مع يعمر بن نفاثة وخويلد بن وائلة ، يعرضون عليه ثلث أموال تهامة على أن يرجع عنهم فرفض[٧]، فرجع عبد المطلب يناجى ربه:

لاهـم إن العبــد يمـ نع حله فامنـع حلالك
لا يغلـبن صليبـــهم ومحالهم غدوا محالك
إن كنت تاركهم وقبـ لتنا فأمـــر مابدالك[8]

أما ابن هشام فيتابع سرد الأحداث قائلا: « .. وأصيب أبرهة فى جسده، وخرجوا به معهم يسقط أنملة أنملة، كلما سقطت أنملة اتبعتها منه مدة تمث قيحا ودما ، حتى قدموا به صنعاء، وهو مثل فرخ الطائر، فمامات حتى انصدع صدره عن قلبه فيما يزعمون، قال ابن إسحق: حدثنى يعقوب بن عتبة أنه حدث: إن أول مارؤيت الحصبة والجد رى فى أرض العرب ذلك العام»[9] وأما الأستاذ عباس العقاد فكان يبدو على قناعة تامة بدور الجدرى فى هزيمة جيش الفيل، فيقول مؤكدا جازما قاطعا «وقد حدث بعد ذلك ماحدث مما لاشك ، وهو فتك الجدرى بجنود أبرهة وانهزامه عن البيت .. إن حديث الجـدرى الذى فـشا سنة ٥٦٩ مثبت .. فى تاريخ بروكوب Procope الوزير البيزنطى المعروف »[10].

ثم يختم ابن هشام الأمر بإعلان نتيجة حدث الفيل العظيم بقوله « ..فلما رد الله الحبشة عن مكة، وأصابهم ما أصابهم من النقمة ، أعظمت العرب قريشا، وقالوا: هم أهل الله، قاتل الله عنهم»[11].

أما كيف دخلت مكة هذا الدور؛ فهو ماسيعود بنا إلى عهد استفاضت فى ذكره كتب التراث ؛ ذلك العهد الذى استطاعت فيه قريش أن تستولى على مكة قبل زمن الفيل بزمان ، تحت قيادة قصى بن كلاب؛ ذلك القرشى الذى استطاع بعبقرية من نوع نادر أن يكون فى مكة سيدا مطلقا.

هوامش مكة أو : حلم السيادة

١- أحمد إبراهيم الشريف : مكة والمدينة فى الجاهلية وعهد الرسول، ص٢٤٢ : ٢٤٤.

٢- عبد الرحمن السهيلى : الروض الأنف فى تفسير السيرة النبوية لابن هشام، ضبط طه عبد الرؤوف سعد، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٨، ج١، ص٧٢.

٣- ابن هشام : السيرة النبوية ج١، ص٤٧ : ٥١.

٤- ابن هشام : فى كتاب الروض للسهيلى، ج١، ص٧١.

٥- ابن هشام : السيرة النبوية، ج١، ص٤٧ : ٥١.

٦- ابن هشام : فى كتاب الروض للسهيلى، ج١، ص٦٩.

٧- نفسه : ص٧٠.

٨- نفسه : ص٧٣.

٩- نفسه : فى كتاب الروض للسهيلى، ج١، ص٧٣.

١٠- العقاد : طوالع البعثة المحمدية، ص١٤٥ و ١٤٦.

١١- ابن هشام : فى كتاب الروض للسهيلى، ج١، ص٧٧.

قصي بن كلاب؟!

تنبئنا كتب الأخبار أن محاولات السيطرة على مكة مسألة قديمة. تعود في قدمها إلى قبيلة جرهم وهى من أصل يمنى قحطانى، وكيف أنه قد اصطرع حول مكة عرب الجنوب القحطانى وعرب الشمال العدنانى، فتنتقل من جرهم إلى سيطرة إياد بن نزار ، ليغلبه عليها بعد ذلك مضر، ومن مضر تنتزعها خزاعة اليمنية مرة أخرى، لينتهى بها الأمر إلى الاستقرار فى يد قريش؛ فى قبضة قصى بن كلاب.

ومن البداية كان واضحا مدى دهاء قصى ووعيه السياسى ، وإدراكه لما يحدث على المستوى الاجتماعى من جدل وتغير مطرد؛ إبان سعيه العبقرى للاستيلاء على السلطة، وانتزاعها لقريش من خزاعة : فقام يتودد إلى حليل؛ سيد خزاعة، وأدى الود إلى وداد المصاهرة، فتزوج قصى بنت حُلَيل. وهنا يروى ابن هشام؛ فيقول : «إنه لما هلك حُلَيل .. رأى قصى أنه أولى بالكعبة وبأمر مكة من خزاعة .. فكلم رجالا من قريش وبنى كنانة ، ودعاهم إلى إخراج خزاعة من مكة، وبخدعة استطاع أن يشترى من أبى غبشان الخزاعى - وكان عجوزا خرفا - مفاتيح الكعبة . مقابل زق من الخمر فى ليلة سامرة، ويقول الحافظ بن كثير: «فاشترى قصى ولاية البيت منه بزق من الخمر وقعود ؛ فكان يقال: أخسر من صفقة أبى غبشان، ويزيد بن هشام بقوله: «فكان قصى أول بنى كعب بن لؤى أصاب ملكا؛ أطاع له

به قومه، فكانت إليه الحجابة والسقاية والرفادة والندوة، فحاز شرف مكة كلها»[1]

ونفهم من كتب التراث أن خزاعة لم تستطع استعادة أمرها على مكة ، بعد أن تحالف مع قصى القرشيون والكنانيون وغيرهم، حتى انتهى الأمر بطرد الخزاعيين من مكة، وتولى قصى أمر الكعبة، وبدأ بفرض الضرائب والعشور على القوافل التجارية المارة بمكة؛ مقابل تأمينهم ، وتأمين السقاية والرفادة لهم،، ويقول المسعودى : «واستقام أمر قصى ، وعشر على مَنْ دخل مكة من غير قريش، **وبنى الكعبة** ، ورتب قريشا على منازلها فى النسب بمكة» [2] وهو قول يشير إلى تطور فى خطط قصى لرفع شأن دولته المكية؛ عن طريق الكعبة واستضافتها أرباب القبائل الأخرى، ثم إن المسعودى يربط بين خطط قصى ومعنى التقريش (من قريش) والإيلاف (بمعنى الأمن)؛ وهو أمر يظهر وعيا سياسيا واضحا تمثل بعد استيلائه على السلطة فى إيفاد الرسل إلى الممالك على أطراف الجزيرة ؛ لإقامة علاقات مع هذه الممالك؛ ليعطى مكة بذلك دور الدولة ، وبهدف طمأنة هذه الممالك على تجارتها؛ ليستمر النشاط المار بمكة، فيقول المسعودى «وأخذت قريش الإيلاف من الملوك ، وتفسير ذلك الأمن، وتقرشت ، والتقريش الجمع»[3].

فى حين يشير ابن كثير إلى منحى ثان فى معنى التقريش وقريش؛ يظهر بوضوح بداية تكون المجتمع المستقر، مرتبطا بالنشاط الاقتصادى ، أو التغير فى بنية المجتمع المكى؛ مع الاستقرار الملازم لتعاظم دورها لتصبح أهم محطة ترانزيت ثم كان محتما أن تكون أكثر المحطات أمانا ؛ قياسا على ما أفرزه الواقع السياسى العالمى، من انهيار تام لأنظمة حفظ الأمن التجارى على الخطوط الدولية ، ومانتج عن ذلك من تراكم الثروة اللازمة

لتحولات المجتمع المكى، وذلك بربطه بين معنى القرش، ومعنى الكسب والتقرش ؛ فيقول: «وأما اشتقاق قريش؛ فقيل من التقرش وهو التجمع بعد التفرق، وذلك فى زمن قصى بن كلاب؛ فإنهم كانوا متفرقين فجمعهم بالحرم،..وقد قال حذافة بن غانم العدوى :

أبوكم قصى كان يدعى مجمعا　　　به جمع الله القبائل من فهر

..وقيل سميت قريش من التقرش، وهو التكسب والتجارة، وحكاه ابن هشام رحمه الله، وقال الجوهرى : القرش الكسب والجمع، وقد قرش يقرش.. قال البيهقى.. إن معاوية قال لابن عباس : فلم سميت قريش قريشا ؟ فقال: لدابة تكون فى البحر تكون أعظم دوابه يقال لها القرش ، لا تمر بشئ من الغث والسمين إلا أكلته .. فأنشده شعر الجمحى إذ يقول :

وقريش هى التى تسكن البحـ　　　ـر بها سميت قريش قريشا

تأكل الغث والسمين ولا　　　تتركن لذى الجناحين ريشا

هكذا فى البلاد هى قريش　　　يأكلون البلاد أكلا كميشا

ولهم آخر الزمان نبى　　　يكثر القتل فيهم والخموشا[٤]

وكان أبرز مؤسسات قصى السياسية هو دار الندوة التى بناها، والتى ربما كانت ذات الكعبة أو فناءها، فكانوا يجتمعون إليه ليقضى بينهم ويدير أمور دولته الصغيرة، ومن بعده كانت قريش تجتمع فيها لتتشاور فى حربها وسلمها، ومن هناك تعقد ألويتها[٥]؛ مما يعنى دخول قريش مرحلة متحضرة وشوط بعيد، ابتعد عن النظام المشيخى القبلى الذى حلت محله دار الندوة، ومَثّل القبائل فيه كبراؤهم أو (الملأ)، وهو مما سيفرز - بالضرورة- بداية الصراع حول امتلاك وسائل الإنتاج والسلطة السياسية كما سيأتى بيانه؛ فبالندوة ابتعد قصى بقريش وبمكة عن القبلية بأتجاه الحضارة، وحل الملأ محل الشيوخ، وحلت الندوة محل الديموقراطية البدوية .

ثم يقول ابن كثير: «..فكان قصى أول بنى كعب أصاب ملكا، أطاع له به قومه، وكانت إليه الحجابة والسقاية والرفادة والندوة، فحاز شرف مكة كله، وقطع مكة أرباعا بين قومه؛ فأنزل كل قوم من قريش منازلهم من مكة.. فكانت لقصى بن كلاب جميع الرئاسة، من حجابة البيت وسدانته، واللواء، وبنى داراً لإزاحة الظلمات وفصل الخصومات سماها دار الندوة»[٦].

ولعله من الواضح أن اللواء أو قيادة الجيش، كان الإفراز الأخطر لجدل الأحداث، لبناء جيش قوى يمكنه الوفاء للملوك بالعهود، وتأمين التجارة التى استبدلت ببحر الرمال فى الجزيرة بحار الدنيا بحروبها وويلها.

ولا يغيب عن فطن أن امتلاك قصى السيادة على مكة، قد تم وفق خطة مرسومة ومدروسة ومنظمة؛ قامت على وعى سياسى نافذ هادف نحو غاية؛ وسائلها هى:

الدين؛ ممثلا فى الكعبة المكية؛ حتى قال ابن الأثير «كان أمر قصى فيهم **شرعا متبعا**، معرفة منهم لفضله وتيمنا بأمره»[٧]، وقال الطبرى: «فكان أمره فى قومة فى حياته وبعد موته **كالدين المتبع**»[٨]،

والمال؛ وقد تيسر من عشور التجارة، وتأليف القلوب حوله؛ بالبذل والعطاء كالملوك؛ من خلال السقاية والرفادة.

وهكذا؛ استطاع أن يجمع بين يديه كل الوظائف الرئيسية والدينية والتشريعية؛ فكان أول سيد مطلق النفوذ فى دولته الصغيرة؛ مكة.

هوامش قصى بن كلاب

١- ابن هشام : السيرة النبوية، ج١، ص١٠٩ : ١١٥. انظر أيضا ابن كثير البداية والنهاية، تدقيق مجموعة من الأساتذة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٤ ١٩٨٨، ج٢، ص١٩٤.

٢- المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج٢، ص٥٨.

٣- نفسه : ص٩٥.

٤- ابن كثير : البداية والنهاية، ج٢، ص١٨٧.

٥- البلاذرى : فتوح البلدان، ص٦٠.

٦- ابن كثير : البداية والنهاية، ج٢، ص١٩٢.

٧- ابن الأثير : الكامل، ج١، ص١٨٣.

٨- ابن جرير الطبرى : تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل، دار المعارف، القاهرة، ط٢، د.ت، ج٢، ص٢٥٩.

الصراع على السلطة بعد قصى

إيمانا منه بفردية الحكم المطلق، وحتى لا تتفرق مكاسبه وتتناثر؛ ترك قصى بن كلاب كل سلطاته ووظائفه وسننه الذكية، لولده البكر عبد الدار، دون أخيه عبد مناف؛ ورحل إلى عالم الأسلاف، بعد أن أسس لقريش دولتها الواحدة فى مكة، ولكن قصى ماكان يعلم أن الحقد سيتملك قلب عبد مناف على ملك عبد الدار وما حظى به من تشريف؛ فكان أن توارث الأبناء أحقاد الآباء، وقام أبناء العمومة يستعدون القبائل على بعضهم، وتجمع بنو عبد مناف مع مؤيديهم فى حلف المطيبين؛ فرد عليهم بنو عبد الدار وحزبهم بحلف الأحلاف، وتجمع الفريقان للقتال من أجل السيادة على مكة. ويشرح ابن كثير الأمر فى قوله : «ثم لما كبر قصى؛ فوض أمر هذه الوظائف التى كانت إليه من رئاسات قريش وشرفها؛ من الرفادة والسقاية والحجابة واللواء والندوة إلى ابنه عبد الدار، وكان أكبر ولده،.. فلما انقرضوا تشاجر أبناؤهم فى ذلك وقالوا: إنما خصص عبدالدار بذلك ليلحقه بإخوته؛ فنحن نستحق ما كان آباؤنا يستحقونه، وقال بنوعبد الدار هذا أمر جعله لنا قصى فنحن أحق به، واختلفوا اختلافا كبيرا، وانقسمت بطون قريش فرقتين، فرقة بايعت عبدالدار وحالفتهم، وفرقة بايعت بنى عبد مناف وحالفوهم على ذلك»(١)

ولعله واضح لمن أصاب خبرة ودربة مع كتب التراث؛ انحياز هؤلاء

الواضح لحزب عبد مناف، فيما وضعوه من تفاسير للأمر والتسميات؛ كما ورد- كمثال- فى شرح السيرة الحلبية لما حدث: «فلما مات عبدالدار وأخوه عبدمناف؛ أراد بنو عبدمناف وهم هاشم وعبد شمس والمطلب، وهؤلاء أخوة لأب وأم..ونوفل أخوهم لأبيهم.. أن يأخذوا تلك الوظائف من بنى عمهم عبدالدار، وأجمعوا على المحاربة.. وأخرج بنو عبد مناف حفنة مملوءة طيبا فوضعوها لأحلافهم فى المسجد عند باب الكعبة، ثم غمس القوم أيديهم فيها، وتعاقدوا هم وحلفاؤهم، ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيدا على أنفسهم؛ **فسموا المطيبين**.. فتطيب منها بنو زهرة وبنو أسد بن عبدالعزى، وبنو تميم بن مرة، وبنو الحارث بن فهر، فالمطيبون من قريش خمس قبائل، وتعاقـد بنو عبدالدار وأحلافهـم، وهم بنو مخـزوم وبنو سهـم وبنو جمع وبنو عدى بن كعب، على ألايتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضا، فسموا الأحلاف لتحالفهم بعد أن أخرجوا حفنة مملوءة دما، من دم جزور نحروها.. وصاروا يضعون أيديهم فيها ويلعقونها **فسموا لعقة الدم**»[٢].

وكان واضحا أنه برغم هذا الاصطراع؛ أن المصلحة الاقتصادية العامة فرضت نفسها على جميع الأطراف؛ فكان الحرص على المصالح التجارية، وماسبق وحققه قصى من هيبة لقريش؛ عاملا جوهريا فى حقن الدماء، وانتهى الأمر بالسلام؛ حيث تقاسم أبناء العمومة ألوية الشرف الموروث، حيث نجد برهان الدين الحلبى يتابع فى سيرته القول:«... ثم اصطلحوا على أن تكون السقاية والرفادة والقيادة لبنى عبدمناف، والحجابة واللواء لبنى عبدالدار، ودار الندوة بينهم بالاشتراك»[٣]، لكن الواضح للمتعامل مع كتبنا الإخبارية أن بنى عبدمناف قد علا نجمهم وفشا أمرهم؛ إلى حد أنهم كانوا هم سفراء الأمان والإيلاف لدول العالم الكبرى حينذاك، وهو مالاحظه الدكتور أحمد شلبى وسجله بقوله : «وكان بنو عبد مناف الأربعة يتوجهون

إلى الجهات الرئيسية الأربعة التى كانت تتجه إليها قريش، فكان **هاشم** يتجه إلى الشام، **وعبدشمس** إلى الحبشة، **والمطلب** إلى اليمن، **ونوفل** (أخوهم غير الشقيق) إلى فارس، وكان تجار قريش يذهبون إلى هذه البلاد فى ذمة هؤلاء الإخوة الأربعة، لا يتعرض لهم أحد بسوء»[٤]. أما ابن كثير فقد أكد أن بنى عبد مناف قد «صارت إليهم الرياسة، وكان يقال إنهم المجيرون، وذلك لأنهم أخذوا لقومهم قريش الأمان من ملوك الأقاليم، ليدخلوا فى التجارات إلى بلادهم»[٥].

وقد أستقرت ألوية الشرف (القيادة والسقاية والرفادة) المنتزعة من بيت عبدالدار لبيت عبدمناف، فى يد هاشم بن عبدمناف بالتحديد دون بقية إخوته، لذا فما أن رحل أخوه عبدشمس عن الدنيا حتى ساورت ولده أمية الأطماع فى أخذ مابيد عمه من ألوية الشرف بالقوة، ووقف نوفل مؤقتا على الحياد، وكادت الحرب تقطع صلات الرحم، وتهدر الدم الموصول، ومرة أخرى تفادى القوم الكارثة، فرضوا بالاحتكام إلى كاهن خزاعى: فقضى الكاهن بنفى أمية بن عبدشمس عشر سنوات إلى منفى اختيارى، ولم يجد أمية يدا من الرضى بحكم أرتضاه: فشد رحاله إلى بلاد الشام ليقضى بين أهلها من السنوات عشراً[٦].

وهكذا: دارت العداوات حول هاشم: عداوة بنى عبدالدار، وعداوة بنى عبدشمس الذى انضم إلى حزب عبدالدار (ونوفل يقف محايدا): عداوة بنى عبد الدار لاعتبار ما بيد هاشم من ألوية شرف هو حق خصهم به جدهم قصى، وعداوة بنى عبدشمس لاعتبار أنفسهم شركاء فى التشريف الذى ناله هاشم بن عبدمناف.

وكانت السنوات العشر التى قضاها أمية بن عبدشمس فى منفاه الشامى

رصيدا لبيته الأموى من بعده؛ فقد ارتبط هناك بأهلها بأواصر السنين والمصاهرة التى قامت لأبنائه ذخرا وعتادا؛ حيث قامت هناك دولة كبرى بعد سنين؛ يرأسها حفيده معاوية؛ تلك التى عرفتها الدنيا باسم الدولة الأموية، وكان حكم الكاهن الخزاعى مدعاة لفرقة وفجوة بين بيت هاشم وبيت عبدشمس وولده أمية؛ ورثها الأبناء والحفدة؛ حتى فيما بعد قيام الدولة الإسلامية؛ حيث استمر الصراع ممثلا فى الأمويين (نسبة لأمية بن عبدشمس) والعباسيين (نسبة للعباس بن عبدالمطلب بن هاشم الذى ظلت بيده ألوية الشرف؛ من سقاية ورفادة بتصريح من النبى- صلى الله عليه وسلم)، أو بين المذهب الشيعى والمذهب السنى. ورغم محاولات قريش رأب الصرع مبكرا، بعقد حلف الفضول بين الأطراف المتنازعة، فإن الصدع استمر يغور ويتسع- باستمرار واصرار- بين أبناء العمومة[١٤].

هوامش الصراع على السلطة بعد قصى

1- ابن كثير : البداية والنهاية، ج٢، ص١٩٤،

2- برهان الدين الحلبى : السيرة الحلبية فى سيرة الأمين المأمون إنسان العيون، دار المعرفة، بيروت، د.ت، ج١، ص٢١، ٢٢.

3- نفسه : ص٢٢.

4- أحمد شلبى : السيرة، ج١، ص١٢٧.

5- ابن كثير : البداية والنهاية، ج٢، ص٢٣٦.

6- الطبرى : التاريخ، ج٢، ص١٢٣.

7- ابن هشام : السيرة، ج١، ص١٢٣.

بنو هاشم من التكتيك إلى الأيديولوجيا

على الرغم من أن ألوية السيادة المستقرة فى بيت عبدالدار قد كفلت له اختصاصات التحكم والقوة، فإن تكتيك هاشم اتجه منحى آخر تمثل فى اكتساب القلوب؛ فقام يهشم الثريد لقومه بيديه- لذلك لقب هاشما- ومد بسخائه القاصى والدانى، أما اسمه الحقيقى فكان عمرو، ويقول ابن كثير : «... هاشم واسمه عمرو، سمى هاشما لهشمه الثريد مع اللحم لقومه فى سنى المحل، كما قال مطرود بن كعب الخزاعى فى قصيدته، وقيل للزبعرى والد عبدالله :

عمرو الذى هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجاف

سنت إليه الرحلتان كلاهمـــا سفر الشتاء ورحلة الأصياف

وذلك لأنه أول من سن رحلتى الشتاء والصيف»[1].

وأذا كان عبد المطلب هو أول من سن رحلتى الشتاء والصيف؛ فلاريب أنه قد فعل ذلك فى الوقت الذى بدأت فيه قريش تتحول من مجرد حارس وقابض للعشور، أو مجرد محطة ترانزيت، إلى بلدة تحتكر التجارة لنفسها، وتتاجر فى بضائع الأمم بأموالها، (ولنلحظ أن القرآن الكريم يربط بعد ذلك بين هذا العامل الاقتصادى المتمثل فى التجارة- وأثر ذلك فى التقرش والاستقرار- والعامل الدينى؛ فى قوله : لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف، فليعبدوا رب هذا البيت، الذى أطعمهم من جوع، وآمنهم من

خوف). وحول الفهم نفسه يكتب الدكتور أحمد شلبى قوله «...فأصبحت مكة جمهورية صغيرة تجارية... وراحت تجارة مكة، فأخذت قريش توطد مركزها فى البلد الحرام، فسنت.. رحلتى الشتاء والصيف؛ رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى الشام؛ فارتفعت مكانة مكة فى الجزيرة، واعتبرت العاصمة المعترف بها، وسمت منزلة سوق عكاظ؛ فأصبح ملتقى الخطباء وقطب الدائرة الفكرية.. وهاشم الجد الثانى للرسول كان سفير قريش لدى الملوك، وقد عقد مع الروم معاهدة تجارية؛ لتذهب تجارة قريش إلى الشام فى أمان ومنعة»(٢)

لكن هاشما أعطى الوضع المتأزم أبعادا جديدة؛ عندما دعم قوى حزبه العسكرية برجال الحرب والدم والحلقة من بنى النجار والخزرج فى يثرب ؛ فشد الوثاق بهم بأن تزوج سلمى بنت عمرو من بنى النجار من الخزرج(٣)، ليكون ذلك لحزب عبد الدار وعبد شمس إعلان صريح عن قيام التحالف بين الحزب الهاشمى وأهل الحرب اليثارية، وترك ولده شيبة المعروف بعبد المطلب ينمو ويربو ويرضع الفروسية بين أخواله، **وحيث كان كل التاريخ الدينى يتواتر هناك فى مقدسات اليهود.**

وبموت هاشم تولى أخوه المطلب منصبى السقاية والرفادة والقيادة، «.. والمطلب كان يقال له القمر لحسنه». - فيما يزعم ابن كثير- (٤) ثم إنه اتبع أسلوب أخيه وسياسته فى اجتذاب القلوب بالكرم والعطاء والبذل؛ فنال ألقاب المحبة والتكريم؛ حتى لقبوه لجوده بالفيض.

ولم يطل العمر بالمطلب سيدا ؛ فقد رحل تاركا استكمال المهمة الجليلة لإبن أخيه ؛ ذاك العبقرى الفذ شيبة بن هاشم المعروف بعبد المطلب، الذى تربى صغيرا فى كنف أخواله من أهل الحرب اليثاريه، ثم تزوج بنت جناب

بن كليب الخزرجى شدا للأواصر ومدا للوثاق[٥] وكان واضحا من البداية فهمه الثاقب لأبعاد الأوضاع فى مكة ؛ فحرص على استدامة حلف المطيبين بالزواج من بنى زهرة ، ومن المهم هنا أن نذكر أنه عند عودته من المدينة إلى مكة ليتنبوأ مكان عمه المطلب؛ وجد عمه نوفلا قد وضع يده على أملاكه خارجا عن حياده مستهينا بحداثة سنه، إلا أن عبد المطلب كتب من فوره إلى أخواله بنى النجار فى يثرب مستنصرا:

أبلـغ بنى النجـار أنـــى جئتهم   أنـى منهم وابنهـم والخميس

رأيتهـــم قومـــا إذا جئتـــــهم   هــووا لقــائى وأحبوا حسيس

فـإنّ عمـــى نوفـــلا قــد أبــى   إلا التى يغض عنها الخسيس[٦]

وما كاد إبراقه يصل الأخوال حتى قدحت حوافز خيول ثمانين محاربا يثربيا بالبرق؛ يحملون السيوف إلى مكة؛ مما دفع نوفلا إلى التراجع من فوره ورد أملاك عبد المطلب إليه، لكنه أعلن خروجه على حياده ، وانحيازه لحزب عبد الدار عبد شمس، ضد عبد المطلب وحزبه الهاشمى. وهذا ماتشرحه لنا السيرة الحلبية عن المطلب وابن أخيه فى قولها : « .. وكان شريفا مطاعا جوادا، وكانت قريش تسميه الفياض لكثرة جوده، فلما كبر عبدالمطلب فوض إليه أمر السقاية والرفادة، فلما مات المطلب وثب عليه عمه نوفل بن عبدمناف، وغصبه أركاحا (أى أفنية ودور).. فكتب إلى أخواله بنى النجار بالمدينة بمافعله معه عمه نوفل، فلما وقف خاله أبو سعد ابن عدى بن النجار على كتابه بكى، وسار من المدينة فى ثمانين راكبا حتى قدم مكة فنزل بالأبطح؛ فتلقاه عبدالمطلب وقال له : المنزل ياخال؛ فقال: لا والله حتى ألقى نوفلا؛. فقال : تركته فى الحجر جالسا فى مشايخ قريش؛ فأقبل أبو سعد حتى وقف عليهم، فقام نوفل قائما وقال: يا أبا سعد أنعم صباحا؛ فقال له أبو سعد: لا أنعم الله لك صباحا ، وسل سيفه، وقال: ورب

هذه البنية (الكعبة)؛ لئن لم ترد على ابن اختى أركاحه، لأملأن منك هذا السيف، فقال: لقد رددتها عليه... ولما جرى ذلك حالف نوفل وبنوه بنى أخيه عبدشمس على بنى هاشم»[٧].

أما الطبرى فيقول: «فلما رأى ذلك نوفل، حالف بنى شمس كلها على بنى هاشم، قال محمد بن أبى بكر، فحدث بهذا الحديث موسى بن عيسى، فقال: يا أبن أبى بكر هذا شئ ترويه الأنصار تقرباً إلينا، **إذ صير الله الدولة فينا**؛ عبد المطلب كان أعز فى قومه من أن يحتاج إلى أن تركب بنو النجار من المدينة إليه، قلت: أصلح الله الأمير؛ قد احتاج إلى نصرهم من كان خيرا من عبدالمطلب، قال: وكان متكئا فجلس مغضبا، وقال: من خير من عبدالمطلب؟ قلت: محمد رسول الله- (صلى الله عليه وسلم)-، قال: صدقت، وعاد إلى مكانه وقال لبنيه: اكتبوا هذا الحديث عن ابن أبى بكـر»[٨].

ويتضح لنا وعى عبدالمطلب بن هاشم السياسى، وبعد نظره، وحسه القومى؛ فى قيادته وفدا إلى اليمن برفقة ابن أخيه أمية (قبل النزاع المشار إليه)، وحلفائه: أبو زمعة؛ جد أمية بن عبد الله بن أبى الصلت - وسيكون لأمية هذا شأن - وخويلد الأسدى بن أسد بن عبد العزى (ومن الواجب ملاحظة امتداد ذلك التحالف فى زواج حفيد عبد المطلب؛ النبى محمد (صلى الله عليه وسلم) من السيدة خديجة بنت خويلد الأسدى - رضى الله عنها - فى الوقت الذى استمر فيه على التكتيك الهاشمى؛ بأن سار على السنة الكريمة المعطاء بالجود؛ حتى لقبه الناس (شيبة الحمد)[٩].

لكن الجديد فى أمره، هو عمله على وضع أيديولوچيا متكاملة لتحقيق أهداف حزبه، فكان إدراكه النفاذ لسنة جده قصى الدينية والسياسية

مساعدا على تحديد الداء و وصف الدواء؛ والداء فرقة قبلية عشائرية، والأسباب تعدد الأرباب وتماثيل الشفعاء، ومن هنا انطلق عبد المطلب يضع أسس فهم جديد للاعتقاد؛ فهم يجمع القلوب عند إله واحد، ويتميز بأنه يلغى التماثيل والأصنام وغيرها من الوساطات والشفاعات؛ لأنه لايقبل من أحد وساطة ولا شفاعة إلا العمل الصالح!!

وتمهيدا لما أزمع؛ أعلن فى الناس : أنه بينما كان نائما فى الحجر بالكعبة أتاه رئىٌ، وغتّه ثلاث مرات، وأوحى إليه الأمر بحفر البئر المعروفة باسم زمزم، وتقول كتب الأخبار الإسلامية، إنها كانت بئرا لجرهم بين صنمى إساف ونائلة دفنتها حين تركت مكة[١٠]. نعم لقد تمثل تنافس بنى العمومة من قبل فى احتفار الآبار، جذباً للقبائل وقوافل التجارة، فقديما حفر عبد الدار (أم جراد)، ولما حفر عبد شمس (الطوى)؛ رد عليه هاشم بحفر (بدر)؛ فزاد أمية فى الكرم وحفر (الحضر)؛ فرد عليه عبد المطلب بحفر (زمزم)[١١]، لكن زمزم ليست ككل الآبار؛ فهى البئر الوحيدة التى قيل فيها إنها حفرت بأمر غيبى - فى حلم عبد المطلب - إضافة إلى ماشاع يتردد حول أمرها، فهى فعل إلهى لا إنسانى، فجرها الله قديما تحت خد إسماعيل بن إبراهيم (عليه السلام)؛ ليشرب وأمه منها، وفى ذلك يقول ابن هشام فى السيرة، «فضل زمزم على سائر المياه : .. فعفت زمزم على المياه التى كانت قبلها يسقى عليها الحجاج، وانصرف الناس إليها لمكانها فى المسجد الحرام، ولفضلها عما سواها من المياه، ولأنها بئر إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام .. »[١٢].

ويقدم لنا ابن كثير نص هذا الأمر أو الوحى بحفر زمزم؛ وهو :

«احفر زمزم، إنك إن حفرتها لن تندم، **هى تراث من أبيك**

الأعظم، لاتنزف أبدا ولاتزم، تسقى الحجيج الأعظم، مثل نعام جافل لم يقسم، ينذر فيها ناذر بمنعم، تكون ميراثا وعقدا محكماً، ليست لبعض ماقد تعلم، وهى بين الفرث والدم [١٣]،

ثم يعقب بالقول : إن عبد المطلب «ساد فى قريش سيادة عظيمة، وذهب بشرفهم ورئاستهم؛ فكان جماع أمرهم عليه، وكانت إليه السقاية والرفادة بعد المطلب، وهو الذى جدد حفر زمزم بعدما كانت مطمومة من جرهم، وهو أول من طلى الكعبة بذهب فى أبوابها، من تينك الغزالتين اللتين من ذهب، وجدهما فى زمزم مع تلك الأسياف القلعية» [١٤]، ثم يؤكد أن عبد المطلب كان مؤسسا لملة واعتقاد، فيروى عن ابن عباس وابن عمرو ومجاهد والشعبى وقتادة.. (عن ديانة أبى طالب ابن عبد المطلب) : «هو على ملة الأشياخ... **هو على ملة عبد المطلب**»[١٥].

ويبدو أن أخطر شأن فى هذه الملة وفى أمر عبد المطلب جميعه؛ هو إدراكه للنسب وخطورته بين الأعراب؛ بحسبانه العامل الجوهرى فى تفككهم السياسى؛ لاعتزاز كل قبيلة بنسبها القبلى - والذى ظل مستبطنا فى بطن التحول الجديد للبنية الاجتماعية المكية - ومن هنا كان إعلانه أن العرب جميعا وقريش خصوصا، يعوذون بجذورهم إلى نسب واحد؛ فهم برغم تحزبهم وتفرقهم، أبناء لإسماعيل بن إبراهيم، لذلك؛ ولأنه ينتمى إلى هذه السلالة الشريفة؛ فقد أعلن فى الناس تبرؤه من أرجاس الجاهلية، وعودته إلى دين جده إبراهيم، ودين إبراهيم. هو الفطرة الحنيفية التى ترفض أى توسط بين العبد والرب، فإذ أهَـلَّ رمضان صعد إلى غار حراء متحنفا، ثم عاد ينادى قومه أنه قد حرم على نفسه الخمر [١٦]، وكل ضروب الفسق؛ حاثا على مكارم الأخلاق؛ داعيا الناس لاتباعه؛ مؤمنا بالبعث والحساب والخلود؛

هاتفا : «والله إن وراء هذه الدار دارا يجزى فيها المحسن بإحسانه، ويعاقب فيها المسيئ بسيئاته»!! ثم لايلبث أن يبشر قومه بقرب قيام الوحدة السياسية، فيشير إلى أبنائه وحفدته الذين أصبحوا له عزوة وشد أزر، ويقول : «إذا أحب الله إنشاء دولة، خلق لها أمثال هؤلاء»[١٧]. أولئك الأبناء الذين كاد يقدم أحدهم ذبيحا (ابنه عبد الله أب النبى - عليه السلام) كما كاد يفعل جده البعيد إبراهيم (عليه السلام) مع ولده إسماعيل (عليه السلام).

وفى أمر عبد المطلب يقول المسعودى : «تنازع الناس فى عبد المطلب، فمنهم من رأى أنه كان مؤمنا موحدا، وأنه لم يشرك بالله عز وجل،.. وكان عبد المطلب يوصى بصلة الأرحام وإطعام الطعام ويرغبهم ويرهبهم، فعل من يراعى فى المتعقب معادا وبعثا ونشورا»[١٨]، هذا بينما يتحدث الأستاذ العقاد عن صراع الهاشميين وأبناء عمومتهم على الرئاسة، وعن عبد المطلب بوجه خاص فيقول : «وقد تنافس بنو هاشم وبنو أمية على هذا الشرف، فأسفرت المنافسة بينهم عن فارق ملحوظ فى الطباع؛ ملحوظ الأثر فى خلائق الأسرتين من أيام الجاهلية إلى مابعد الإسلام بعدة قرون... لقد كان بنو هاشم أسرة النبى (صلى الله عليه وسلم)أصحاب رئاسة وكانت لهم أخلاق رئاسة... وكان عبد المطلب متدينا صادق اليقين؛ مؤمنا بمحارم دينه... كان فى الحق نمطا فريدا بين أصحاب الطبائع التى فطرت على الاعتقاد ومناقب النبل والإيثار، كانت مناقبه مطلبية تدل عليه ولاتصدر عن غيره، وكانت كلها مزيجا من الأنفة والرصانة والاستقلال.... وأدعياء التاريخ خلقاء أن يسألوا أنفسهم هنا سؤالين، لايغفلهما أحد يفقه معنى التمحيص. الخبر، وأولهما فى هذا السياق. لماذا يخترع الرواة هذه الأخبار عن عبد المطلب دون غيره ؟ وثانيهما : لماذا لم يخترعوها ولا اخترعوا

أمثالها عن حرب بن أمية ؟.. وكل ما تفرقت فيه الروايات من أمر عبد المطلب قد استقرت على صفة لاتفترق فيها روايتان، **وهى صدق التدين والإيمان بمحارم الدين**»[١٩].

هذا بينما يقول الحافظ السيوطى : «.. إن أجداده (عليهم السلام) من آدم إلى مرة بن كعب مصرح بإيمانهم.. وقد ذكر فى عبد المطلب «إنه كان على ملة إبراهيم (عليه السلام) أى لم يعبد الأصنام...[٢٠]، كما جاء عن بن عباس (رضى) قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : «يبعث جدى عبد المطلب فى زى الملوك وأبهة الأشراف...»... وكان أبو طالب ممن حرم الخمر على نفسه فى الجاهلية كأبيه عبد المطلب[٢١].

وليس أدل على مثل هذه التوجهات بشأن عبد المطلب ما زعمه الإخباريون من اعتقاد العرب فى شأنه، كصاحب ملة، وكرجل له نوع ما من العلاقة بالسماء، وفى أنه ثمة رابطا بين ذلك وعلمه اليقينى المسبق بأن حفيده؛ محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) هو نبى الأمة وموحدها المنتظر. فتشير كتب التراث إلى أن قريشا استقت به من السماء بعد جدب أشرفت معه على الهلاك؛ فصعد بهم ومعه حفيده إلى جبل أبى قبيس ينادى ربه «لاهم هؤلاء عبيدك وبنو عبيدك وإماؤك وبنو إماؤك، وقد نزل بهم ماترى، وتتابعت علينا السنون، فذهبت بالظلف والخف والحافر؛ أى الإبل والبقر والخيل والبغال والحمير، فأشفت على الأنفس، أى أشرفت على ذهابها، فأذهبن عنا الجدب وائتنا بالحيا والخصب، فما برحوا حتى سالت الأودية». أما الاعتقاد الثابت لدى هؤلاء فقد كان هو : «له فخر يكظم عليه - أي يسكت عنه ولايظهره - **وسنن يهتدى بها** - أى يرشد إليها»، وفى الاستسقاء به قالت رقيقة بنت أبى صيفى شعرها :

بشيبة الحمد أسقى الله بلدتنا وقد عدمنا الحيا واجلّوذ المطر[٢٢].

ولابأس هنا من إيراد نص يحكى عن علاقة عبد المطلب وسننه بالسماء، واستجابة السماء له؛ يقول :

«ولما سقوا لم يصل المطر إلى بلاد قيس ومضر، فاجتمع عظماؤهم (وذهبوا إليه يقولون) : قد أصابتنا سنون مجدبات، وقد بان لنا أثرك وصح عندنا خبرك، **فاشفع لنا عند من شفعك، وأجرى الغمام لك،** فقال عبد المطلب : سمعا وطاعة... ثم قال : اللهم رب البرق الخاطف، والرعد القاصف، رب الأرباب، وملّين الصعاب، هذه قيس ومضر، من خير البشر، قد شعثت رؤوسها، وحدبت ظهورها، تشكو إليك شدة الهزال، وذهاب الناس والأموال، اللهم فافتح لهم سحابا خوارة، وسماء خرارة، لتضحك أرضهم، ويزول ضرهم. فما استتم كلامه حتى نشأت سحابة سوداء دكناء، لها دوى وقصدت نحو عبد المطلب، ثم قصدت نحو بلادهم؛ فقال عبد المطلب : يامعشر قيس ومضر انصرفوا فقد سقيتم، فرجعوا وقد سقوا »[٢٣].

أما ماجاء عن فخرله يكظم عليه ولايظهره؛ فقد وضح فى الحديث المتواتر فى كتب السير عن اللقاء السرى الذى تم بينه وبين سيف بن ذى يزن؛ عندما قاد وفد قريش لتهنئته باستقلال بلاده عن الحبشة. وبهذا الشأن يورد بن عبد ربه مازعم أنه دار فى هذا اللقاء، فى حديث مسجوع الفواصل؛ فقال سيف لعبد المطلب :

«إنى مفوض إليك من سر علمى أمرا غيرك كان لم أبح له به، ولكنى رأيتك موضعه فأطلعتك عليه، فليكن مصونا

حتى يأذن الله فيه، فإن الله بالغ أمره، فإنى أجد فى العلم المخزون، والكتاب المكنون الذى ادخرناه لأنفسنا، واحتجبناه دون غيرنا، خبرا عظيما، وخطرا جسيما، فيه شرف الحياة، وفضيلة الوفاة، للناس كافة، ولرهطك عامة، وبنفسك خاصة... إذا ولد مولود بتهامة، بين كتفيه شامة، كانت له الإمامة، إلى يوم القيامة... هذا حينه الذى يولد فيه، يموت أبوه وأمه، ويكفله جده وعمه، وقد وجدناه مرارا، والله باعثه جهارا، وجاعل له منا أنصارا (المقصود هنا أهل يثرب فهم من أصل يمنى)، يعز بهم أولياءه، ويذل بهم أعداءه، ويفتتح كرائم الأرض، ويضرب بهم الناس عن عرض، يخمد النيران، ويكسر الأوثان، ويعبد الرحمن، قوله حكم وفصل، وأمره حزم وعدل، يأمر بالمعروف ويفعله، وينهى عن المنكر ويبطله،... والبيت ذى الطنب، والعلامات والنصب، إنك ياعبد المطلب، لجده من غير كذب فخر عبد المطلب ساجداً... قال بن ذى يـــزن: .. اطو ماذكرت لك دون هؤلاء الرهط الذين معك؛ فإنى لست آمنا أن تدخلهم النفاسة، فى أن تكون لكم الرياسة، فيبغون له الغوائل، وينصبون له الحبائل، وهم فاعلون وأبناؤهم».

ويردف ابن عبد ربه القول : إن ابن ذى يزن «أمر لكل منهم بعشرة أعبد، وعشرة إماء سود، وخمسة أرطال فضة، وحلتين من حلل اليمن، وكرش مملوءة عنبرا، وأمر لعبد المطلب بعشرة أضعاف ذلك، فكان عبد المطلب بن هاشم يقول : يامعشر قريش لايغبطنى رجل منكم بجزيل عطاء الملك؛ فإنه إلى نفاد، ولكن يغبطنى مما يبقى لى ذكره وفخره لعقبى؛ فإذا قالوا له :

وما ذاك ؟ قال : سيظهر بعد حين »)[٢٤].

وعن اليقين بعلم عبد المطلب بأمر حفيده؛ يتحدث كتبة التراث مسلمين بالأمر، ثم يقصون أقاصيص تعبر عن هذا التسليم وذاك اليقين؛ فيذكرون عن ولده العباس (رضى) قوله : «قال عبد المطلب : قدمت من اليمن فى رحلة الشتاء، فنزلنا على حبر من اليهود يقرأ الزبور، فقال : من الرجل؟ قلت : من قريش، قال : من أيهم؟ قلت : من بنى هاشم، قال : أتأذن لى أن أنظر إلى بعضك، قلت نعم مالم يكن عورة، قال : ففتح إحدى منخرى فنظر فيها ثم نظر فى الأخرى، فقال : أنا أشهد **أن فى إحدى يديك ملكا وفى الأخرى نبوة**، وإنما نجد ذلك (أى كلا الملك والنبوة) فى بنى زهرة، فكيف ذاك؟ قلت لا أدرى ... فقال: إذا تزوجت فتزوج منهم. فلما رجع عبدالمطلب إلى مكة تزوج هالة بنت وهيب بن عبد مناف! فولدت له حمزة وصفية، وزوج إبنه عبدالله آمنة بنت وهب أخى وهيب، فولدت له رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فكانت قريش تقول، فلج عبد الله على أبيه، أى فاز وظفر .. ثم رأيت فى أسد الغابة... أن عبدالمطلب تزوج هو وعبد الله فى مجلس واحد.. **وجاز أن يكون الملك والنبوة اللذان عنهما الحبر، هما نبوته وملكه (صلى الله عليه وسلم) لأنه أعطيهما** »[٢٥].

وعليه فإن هذا الخبر- سواء حل محل الصدق أو عدمة- يشير إلى علم عبدالمطلب بل سعيه لتحقيقه وإنجاحه، وثمة شاهد آخر يتفق عليه الرواة، ويقول عنه البيهقى :«كان يوضع لعبد المطلب جد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فراش فى ظل الكعبة؛ فكان لايجلس عليه أحد من بنيه إجلالا له؛ وكان رسول الله (صلى الله عليه وسلم)- يأتى حتى يجلس عليه؛ فيذهب أعمامه يؤخرونه؛ فيقول جده عبد المطلب : دعوا أبنى، فيمسح على ظهره ويقول: إن لبنى هذا لشأناً»[٢٦]، أو بتعبير السيرة الحلبية «.. دعوا

إبنى إنه ليؤنس ملكا »، أو قولها « ... دعو ابنى يجلس عليه فإنه يحس في نفسه بشرف، أى يتيقن من نفسه شرفا، وأرجو أن يبلغ من الشرف مالم يبلغه عربى قبله ولابعده »[٢٧]. أو بتعبير ابن كثير « .. دعوا ابنى؛ فو الله إن له لشأنا .. دعوا ابنى انه يؤسس ملكا »[٢٨]. ثم كان يشتد وجد الجد بالحفيد؛ « .. فقال عبد المطلب لبنيه : تحفظوا يابن أخيكم»، أو قوله لأم أيمن حاضنته : «يابركة.. لاتغفلى عن ابنى؛ فإن أهل الكتاب - أى ومنهم سيف بن ذى يزن..- يزعمون أنه نبى هذه الأمة، وأنا لا آمن عليه منهم»[٢٩]، ويروى البيهقى : «فكان عبد المطلب فيما يزعمون يوصى أبا طالب برسول الله (صلى الله عليه وسلم)، وذلك أن عبد الله وأبا طالب لأم، فقال عبد المطلب فيما يزعمون؛ فيما يوصى به - واسم أبى طالب عبد مناف :

أوصيك ياعبد مناف بعدى ... بموحد بعد أبيه فرد

فارقه وهو ضجيع المهد ... فكنت كالأم له فى الوجد

إن الفتى سيد أهل نجد ... يعلو على ذى البدن الأشد[٣٠]

وبما أن لكل مجتهد نصيبا؛ فقد أتت مساعى عبد المطلب وجهوده التى لم تكل بثمارها، واتبعه كثيرون على ملته الإبراهيمية وعقيدته الحنفية، التى لم يستنكف المؤرخون والباحثون من نعتها بـ «دين عبد المطلب»[٣١]، ومن هؤلاء التابعين (وفيهم السابقون الممهدون) : قس بن ساعدة الأيادى، وأمية بن أبى الصلت، وأرباب بن رئاب، وسويد بن عامر المصطلقى، ووكيع بن سلمة بن زهير الأيادى، وعمير بن جندب الجهنى، وأبو قيس صرمة بن أبى أنس، وعامر بن الظرب العدوانى، وعلاف بن شهاب التميمى، والمتلمس بن أمية الكنانى، وزهير بن أبى سلمى، وخالد بن سنان بن غيث

العبسى، وعبد الله القضاعى، وكعب بن لؤى بن غالب، وعبد لطانجة بن ثعلب، وزيد الفوارس بن حصين، وزيد بن عمرو بن نفيل[٣٢]، وأكثم بن صيفى، وأبو قيس بن الأسلت، وحنظلة بن صفوان، وغيرهم كثير، وبانتشار الأيديولوچيا الحنفية بدأ أتباعها يتنافسون فى التقوى والتسامى الخلقى؛ عل أحدهم يكون نبى الأمة وموحد كلمتها، حتى شكلوا «تيارا قويا، خاصة قبل ظهور الإسلام بفترة وجيزة»[٣٣].

هوامش بنو هاشم فى التكتيك إلى الأيديولوچيا

١- ابن كثير : البداية والنهاية، ج٢، ص٢٣٦.

٢- أحمد شلبى : السيرة، ج١، ص١٤٦ و ١٨٣.

٣- ابن هشام : فى كتاب الروض للسهيلى، ج١، ص١٣٠.

٤- ابن كثير : البداية والنهاية، ج٢، ص٢٣٧.

٥- ابن هشام : فى كتاب الروض للسهيلى، ج١، ص١٣١.

٦- الطبرى : التاريخ، ج٢، ص٢٤٨ و ٢٤٩.

٧- الحلبى : السيرة، ج١، ص٢٢ و ٢٣.

٨- الطبرى : التاريخ، ج٢، ص٢٤٩.

٩- ابن سيد الناس : عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسير، تحقيق لجنة إحياء التراث العربى، دار الآفاق الجديدة، بيروت ج١، ص٢٩.

١٠- ابن هشام : السيرة، ج١، ص١٠١.

١١- نفسه : ص١٣٦ : ١٣٩.

١٢- نفسه : ص١٣٩.

١٣- ابن كثير : البداية والنهاية، ج٢، ص٢٢٨.

١٤- نفسه : ص ٢٣٦.

١٥- نفسه : ج٣، ص١٢٢.

١٦- أبو جعفر محمد بن حبيب : المحبر، دار الآفاق الجديدة، بيروت، د.ت،

ص٢٣٧.

١٧- أبكار السقاف : نحو آفاق أوسع، الأنجلو المصرية، القاهرة، د.ت، ج٢، ص١٢٤٤، ١٢٤٥.

١٨- المسعودى : مروج الذهب، ج١، ص١٣١، ١٣٢.

١٩- العقاد : طوالع البعثة، ص١٤٠ و ١٤٢ و ١٤٤ و ١٤٨.

٢٠- الحلبى : السيرة، ج١، ص٧٠.

٢١- نفسه : ج١، ص١٨٤.

٢٢- نفسه : ج١، ص١٨١، ١٨٢.

٢٣- نفسه : ج١، ص١٨٢ و ١٨٣.

٢٤- ابن عبد ربه : العقد الفريد، ج١، ص٢٩١ : ٢٩٣. وانظر أيضا المسعودى : مروج الذهب، ج٢، ص٨٣ و ٨٤.

٢٥- الحلبى : السيرة، ج١، ص٧٠ و ٧٢.

٢٦- أبو بكر البيهقى : دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، توثيق د. عبد المعطى قلعجى، دار الريان للتراث، القاهرة ط١، ١٩٨٨، ج٢، ص٢٢.

٢٧- الحلبى : السيرة، ج١، ص١٧٧.

٢٨- ابن كثير : البداية والنهاية، ج١، ص٢٦١.

٢٩- الحلبى : السيرة، ج١، ص١٨٠.

٣٠- البيهقى : دلائل النبوة، ج٢، ص٢٢.

٣١- د. أحمد جمال العمرى : الشعراء الحنفاء، دار المعارف، القاهرة، ط١، ١٩٨١، ص١٠٢.

٣٢- نفسه : ص٨٦.

٣٣- ثريا منقوش : التوحيديمان، التوحيد فى تطوره التاريخى، دار الطليعة، بيروت، ١٩٧٧، ص١٥٩.

جذور الأيديولوچيا الحنفية

يبدو أن التوحيد بمعناه الحنفي يعود إلى زمن بعيد، فحوالى القرن الأول قبل الميلاد كان بعض أهل اليمن يعبدون إلها باسم (ذوى سموى) أو إله السماء، كإله واحد، وقد ذكرت نقوش المسند اليمنية عبادة إله واحد يدعى (رحمن)، ويرى الباحثون أنهما كانا مسميين لواحد، وتؤكد (ثريا منقوش): «أن عُبّاد هذا الإله كانوا يعرفون بالأحناف»[1]. ويذهب الدكتور جواد على إلى افتراض أن تكون عقيدة حنفاء مكة التى نادى بها عبد المطلب بن هاشم، بعد سبعة قرون؛ امتدادا لحنيفة رحمن اليمن؛ رب السماء ذوى سموى، ويلمح إلى ذلك فى قوله عن أحناف مكة : «لانستطيع أن نقول إنهم نصارى أو يهودا، إنما أستطيع أن أشبه دعوة هؤلاء بدعوة الذين دعوا إلى عباذة الإله رب السماء ذوى سموى، أو عبادة الرحمن فى اليمن»[2].

ويذكر الفخر الرازى أن عقيدة أحناف اليمن، كانت أركانا أربعة هى : حج البيت، واتباع الحق، وملة إبراهيم، والإخلاص لله وحده. ثم يضيف قولـه : **إن عدم معرفة هؤلاء لتاريخ نشوء عقيدتهم؛ فقد نسبوها إلى إبراهيم النبى العبرى!!** (لنا فى جذور هذا الأمر بحث خاص، ألقينا فيه الضوء على مساحات مظلمة فى تاريخ هذه العقيدة، بعنوان : النبى إبراهيم والتاريخ المجهول).

ويذهب الألوسى إلى أن الصائبة هم قوم النبى إبراهيم (عليه السلام)

وأهل دعوته[٣]؛ مما دفع بعض العلماء إلى حسبان الحنفاء صنفا من الصابئة، وبالتحديد - الصنف المؤمن أو من بقى على الإيمان منهم[٤]، وكان منهم بالجزيرة العربية نفر غير قليل، وكانوا يقيمون الصلاة عدة مرات فى اليوم كفرض إجباري للإيمان، يقومون فيها ويركعون، ويتوضئون قبلها، ويغتسلون من الجنابة، ولهم قواعد فى نواقض الوضوء[٥]. (ولعل ذلك يفسر لنا لماذا أطلق أهل مكة على من يتبع دعوة الإسلام : أنه صبأ)!!

ولابأس هنا من التعريف السريع بأهم حنفاء الجزيرة، أو من شاء حظهم أن يذكرهم التاريخ ولو بكلمات، ومنهم - كما أشرنا - قس بن ساعدة الأيادي الذى يكاد يجمع المؤرخون على موته قبل البعثة بقليل، وقد ورد أن النبى(صلى الله عليه وسلم) كان يسمع إليه فى سوق عكاظ. ونقل الألوسى بعض مانسب إلى قس فقال : «ومن خطباء أياد قس بن ساعدة، وهو الذى قال فيه النبى (صلى الله عليه وسلم) لجارود : يا جارود، فلست أنساه بسوق عكاظ على جمل أورق، وهو يتكلم بكلام ما أظن أنى حفظته، فقال أبو بكر : يارسول الله فإنى أحفظه، كنت حاضرا ذلك اليوم، فقال فى خطبته : أيها الناس؛ اسمعوا وعوا؛ فإذا وعيتم فانتفعوا، إنه من عاش مات، ومن مات فات، وكل ماهو آت آت، إن فى السماء لخبرا، وإن فى الأرض لعبرا، جهاد موضوع، وسقف مرفوع، ونجوم تمور، وبحار لن تغور، ليل داج، وسماء ذات أبراج، أقسم قس قسما حتما، لئن كان فى الأرض رضى ليكونن بعدة سخطا، وإن لله دينا هو أحب إليه من دينكم»[٦]، ثم يعلن توحيده الخالص النقى؛ مناديا «كلا، بل هو الله المعبود الواحد، ليس بمولود ولا والد، أعاد وأبدى، وإليه المآب غدا[٧] ثم يرسل شعره قائلا :

فـى الذاهبـين الأولـــ ـــين فى الشعوب لنا بصـائر

لما رأيت مواردا ... للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها ... تسعى الأصاغر والأكابر
لايرجعن قومي إليّ ... ولا من الباقين غابر
أيقنت أني لا محـ ... ـالة حيث صار القوم صائر[٨]

ويقول أيضا :

يا ناعي الموت والأموات في جدث ... عليهم من بقايا بزعم خرق
دعهم فإن لهم يوما يصاح بهم ... فهم إذا انتبهوا من نومهم فرقوا
حتى يعودوا لحال غير حالهم ... خلقا جديدا كما من قبله خلقوا
فيهم عراة ومنهم في ثيابهم ... منها الجديد ومنها المبهج الخلق

حتى قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) «والذي بعثني بالحق، لقد آمن قس بالبعث»[٩].

ومن الحنفاء (سويد بن عامر المصطلقي). ذكرت المصادر أنه كان على دين الحنيفية وملة إبراهيم، وقد جاء في شعره ذكر المنايا وحتمها، وأن الخير والشر مكتوبان على النواصي، وأنه ليس للمرء يد فيما يصيبه القدر، فكل شئ محتوم مقدور. قال مسلم الخزاعي المصطلقي : «شهدت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وقد أنشده منشد قول سويد بن عامر المصطلقي :

لا تأمنن وان أمسيت في حرم ... حتى تلاقي مايمنى لك الماني
فالخير والشر مقرونان في قرن ... بكل ذلك يأتيك الجديدان
فكل ذي صاحب يوما يفارقه ... وكل زاد وإن أبقيته فانٍ

فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : لو أدركته لأسلم[١٠].

ومنهم أيضا - قبل عبد المطلب - وكيع بن سلمة بن زهير الإيادي، الذي بنى صرحا بأسفل مكة جعل فيه أمة يقال لها حزورة، وبها سميت حزورة

مكة، جعل فيه سلما يرقاه، زاعما أن الله يناجيه فيه، وكان يتكلم بالخير، وزعم العرب أنه صديق من الصديقين[١١]، وهو بهذا المعنى رجل متأله مدعى الوحى متنبئ، وذكروا عنه كلمات مسجوعة مثل «إن ربكم ليجزين بالخير ثوابا، وبالشر عقابا، وإن من فى الأرض عبيد لمن فى السماء، هلكت جرهم وزيلت إياد، وكذلك الصلاح والفساد»، أو مثل «من رشد فاتبعوه، ومن غوى فارفضوه، وكل شاة برجلها معلقة»[١٢].

ومنهم أيضا (أبو قيس صرمة بن أبى أنيس)، وهو من بنى النجار أهل يثرب؛ أنسباء البيت الهاشمى، وتقول الأخبار إنه فارق الأوثان واغتسل من الجنابة، وتطهر، ودخل بيتا له اتخذه مسجدا لاتدخله طامث ولايدخله جنب، وقال أعبد رب إبراهيم، وكان قوالا بالحق، معظما لله، وقال ابن حجر : إنه لما قدم النبى (صلى الله عليه وسلم) إلى يثرب، أسلم وحسن إسلامه، وهو شيخ عجوز، وكان ابن عباس يختلف إليه ويأخذ عنه الشعر[١٣]؛ ومن هذا الشعر قوله :

فو الله مايدرى الفتى كيف يتقى ... إذا هو لم يجعل له الله واقيا
ولاتحفل النخل المعيمة ربها ... إذا أصبحت ريا وأصبح ثاويا

وقوله :

يابنى الأيام لاتأمنوها واحذروا ... مكرها ومر الليالى
واعلموا أن مرها لنفاذ الخلـ ... ـق ماكان من جديد وبالى

وقوله :

سبحوا الله شرق كل صباح ... طلعت شمسه وكل هلال
عالم السر والبيان لدينا ... ليس ماقال ربنا بضلال[١٤]

ومنهم أيضا ورقة بن نوفل الذى قال عنه الألوسى انه ممن وحد الله،

وترك الأوثان وسائر أنواع الشرك، واجتهد فى طلب الحنيفية دين إبراهيم، ثم تنصر، لكنه لم يتبع النصارى فى التبديل، وظل موحدا[١٥] وقد سأل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن ورقة؛ فقالت له خديجة (رضى) : إنه كان صدقك وإنه مات قبل أن تظهر؛ فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): رأيته فى المنام وعليه ثياب بيض، ولو كان من أهل النار لكان عليه لباس غير ذلك[١٦].

وقس هو الذى كان ينادى الناس ناصحا:

لاتعبـدون إلـها غيـر خالقـكم ... فإن دعوكم فقولوا بيننا حدد
سبحان ذى العرش سبحانا نعوذ به ... وقبل قد سبح الجودى والجمد
مسـخر كل ماتحت السـماء لـه ... لاينبغى أن يناوى ملكه أحـد
لاشـئ مما نرى تبقى بشاشـته ... يبقى الإله ويودى المال والولد

وهو الذى قال فى (زيد بن عمر بن نفيل) رفيقه على درب الحنيفية بعد مـوته :

رشدت وأنعمـت بن عمـرو وإنمـا ... تجنبـت تنورا من النـار حاميـا
بدينـك ربا ليـس رب كمثـله ... وتركك أوثان الطواغى كما هيـا
وإدراكك الديـن الذى قـد طلبـته ... ولم تـك عن توحيد ربك ساهيـا
فأصبحت فى دار كريـم مقامـها ... تعـلل فيـها بالكرامـة لاهيـا
تلاقى خليل الله طيها ولم تكـن ... مـن الناس جبار إلى النار هاويـا
وقـد تـدرك الإنسان رحمـة ربـه ... ولوكان تحت الأرض سبعين واديا.[١٧]

ومنهم عامر بن الظرب العدوانى، وكان من حكماء العرب وخطبائهم، وكانت له نظرات وآراء فى العقيدة؛ تتضح فى قوله فى وصية طويلة منها : «إنى مارأيت شيئا قط خلق نفسه، ولا رأيت موضوعا إلا مصنوعا، ولا

جائيا إلا ذاهبا، ولو كان يميت الناس الداء لأحياهم الدواء»... إنى أرى أموراً شتى وحتى (قيل له : وما حتى؟) قال : حتى يرجع الميت حيا، ويعود اللاشئ شيا..»[18]، وقالوا عنه : إن إيمانه بملة إبراهيم، دفعه إلى تحريم الخمر على نفسه[19]، وفى ذلك يقول :

أن أشرب الخمر أشربها للذتها ... وأن أدعها فإنى ماقت قال

لولا اللذاذة والفتيان لم أرها ... ولا رأتنى إلا من مدى الغال

سئالة للفتى ماليس يملكه ... ذهابة بعقول القوم والمال

مورثة القوم أضغانا بلا أحن ... مزرية بالفتى ذى النجدة العال

أقسمت بالله أسقيها وأشربها ... حتى يفرق ترب القبر أوصالى[20]

ومنهم علاف بن شهاب التميمى الذى آمن بوحدانية الله وبالبعث والنشور والحساب والثواب والعقاب، وهو القائل :

ولقد شهدت الخصم يوم رفاغة ... فأخذت منه خطة المغتال

وعلمت أن الله جاز عبده ... يوم الحساب بأحسن الأعمال[21]

ومنهم المتلمس بن أمية الكنانى الذى كان يخطب فى فناء الكعبة مناديا بنبذ الفرقة القبلية عن سبيل نبذ الأوثان، والاتجاه إلى رب كعبة مكة، وكان يقول لهم : «إنكم تفردتم بآلهة شتى، وإنى لأعلم ماالله راض به، وإن الله رب هذه الآلهة، وإنه ليحب أن يعبد وحده»[22].

ومن الحنفاء أيضا من حاز بعض الشهرة، مثل زهير بن أبى سلمى، وذُكر أنه كان يتأله ويؤمن بالبعث والحساب، ويُروى أنه كان يمر بالعضاه قد أورقت بعد يبس فيقول : «لولا أن تسبنى العرب، لآمنت أن الذى أحياك بعد يبس سيحيى العظام وهى رميم»، وقد سلكه ابن حبيب ضمن من حرموا على أنفسهم الخمر والسكر والأزلام[23]، وهو القائل مقسما بالكعبة :

أقسمت بالبيت الذى طاف حوله رجال بنوه من قريش وجرهم
يمينا لنعم السيدان وجدتما على كل حال من سحيل ومبرم[٢٤]

وهو القائل :

ومهما تكن عند امرئ من خليقة ولو خالها تخفى على الناس تعلم
ومن هاب أسباب المنية يلقها ولو رام أسباب السماء بسلم[٢٥]

ثم هو يحدد موقفه واضحا من لعقة الدم فى حلف الأحلاف المناوئ للمطيبين فى قوله :

ألا أبلغ الأحلاف عنى رسالة وذبيان، هل أقسمتم كل مقسم
فلا تكتمن الله مافى نفوسكم ليخفى، ومهما يكتم الله يعلم[٢٦]

ثم يقول مؤمنا :

ألا ليت شعرى هل يرى الناس ماأرى من الأمر أو يبدو لهم مابدا ليا
بدا لى أن الله حق فزادنى إلى الحق تقوى الله ماكان باديا[٢٧]

إن الفكر السليم ليعزو انتشار الحنيفية فى الجزيرة والحجاز؛ إلى تمهيد هؤلاء وتوطئتهم، حتى تحولت إلى تيار قوى قبل الإسلام، وإن أهم رجالات الحنيفية وأساتذتها - وربما كان أولهم من حيث الأهمية والأثر- هو عبد المطلب بن هاشم، إضافة إلى اثنين من تلامذة الحنيفية الكبار هما : زيد بن عمرو بن نفيل بن حبيب، ذاك الذى استطاع جده اقناع الفيل محمود بالعودة إلى اليمن راشدا، وكان حليفا لعبد المطلب، والثانى أمية بن عبد الله بن أبى الصلت؛ وكان جده حليفا بدوره لعبد المطلب، ورفيقه فى رحلته لتهنئة بن ذى يزن باستقلال اليمن.

ويؤكد الدكتور جواد على أن أهم العلاقات الفارقة التى ميزت الحنفاء عن غيرهم، هى: الاختتان، وحج مكة، والاغتسال من الجنابة، واعتزال

الأوثان، والايمان بإله واحد بيده الخير والشر، وأن كل مافى الكون محتوم مكتوب[٢٨]، وفى ملل الشهر ستانى نجد أن الحنفاء كانت تقول : «إننا نحتاج في المعرفة والطاعة إلى متوسط من جنس البشر؛ تكون درجته فى الطهارة والعصمة والتأييد والحكمة فوق الروحانية، ويلقى إلى نوع الإنسان بطرف البشرية»[٢٩].

إذن هى النبوة؟! ولابد للأحناف من نبى!!

وهنا يقول لنا الدكتور أحمد الشريف : «والدليل على أن الجاهليين كانوا يتطلعون إلى نظام جديد؛ أنهم كانوا - حسب تفكيرهم - يتحدثون عن علامات ونذر تنبئ عن قرب ظهور نبى منهم، وقد روى القدماء معجزات ونذراً قالوا إنها وقعت قبل ظهور الإسلام؛ إرهاصاً به ومنبئة بقرب ظهوره، وتلك الروايات - إن صحت - كانت دليلا على أن الجاهليين تطلعوا إلى الإصلاح، وإلى ظهور مصلح من بينهم، وكان الإصلاح قديما لايأتى إلا على أيدى الحكماء والأنبياء، وهذا التطلع الطبيعى فى كل جماعة إحساس ضرورى يسبق كل حركة إصلاحية ويمهد لها،.. وكانت البيئة مستعدة لقبول النظام الجديد؛ لأنها بيئة لها وحدتها المتميزة؛ من الناحية اللغوية، ومن ناحية الجنس.. وكان من المتوقع لو لم يظهر الإسلام أن يدخل العرب فى أحد الدينين، لولا أنهم بدأوا نهضة قومية.. لذلك يريدون ديانة خاصة يعتبرونها رمزا لقوميتهم.. ديانة تعبر عن روح العروبة وتكون عنوانا لها، لذلك؛ بحث عقلاؤهم عن الحنيفية دين إبراهيم الذى كانوا يعدونه أباً لهم.. وقد ظهرت حركة التحنف قبل الإسلام مباشرة، وكانت رمزا إلى أن الروح العربى كان يتلمس يومئذ دينا آخر غير الوثنية، والإسلام حين جاء.. كان دليلا على نضوج دينى فلسفى، استعد له العرب فى القرون المتطاولة السابقة،.. وكذلك كانوا يحسون بأن عدم وجود دولة تجمعهم أمر فيه ذلة

وعار.. فى هذه الظروف المواتية من الناحية الدينية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية؛ ظهرت النهضة العربية؛ وكانت دينية؛ والدين كان عاملا من عوامل التطوير والتقدم فى العصور القديمة، ولم يتنازل الدين بعض الشئ عن هذه الناحية إلا بانتشار العلوم، ووجود العوامل التى تنافسه فى القيام بهذا الدور فى العصر الحديث[٣٠]

المهم؛ أنه عندما وصل الحنفاء إلى النتيجة المحتومة، بدأت مباراة تتسم بسمو الروح الرياضية ورقيها؛ فأخذوا يتنافسون فى الترفع عن صغائر الأفعال، وهذه الأفعال التى تعففوا عنها هى التى أصبحت فيما بعد أفعالا شريرة، ويجب تجنبها فى نظر الناس، أما عندما جاء الإسلام فقد أوجب تحريمها، ومن هؤلاء الرواد الذين لاينبغى أن يتخطاهم البحث المحايد، من يصح الوقوف معهم رويداً.

الوقفة الأولى: مع زيد بن عمرو بن نفيل الذى تعود أرومته إلى قصى بن كلاب، وأمه هى أمية بنت عبد المطلب!! ويعد ثانى الرواد الحنفيين أثرا وأكثرهم خطرا بعد عبد المطلب بن هاشم، وعنه يقول ابن كثير :«إنه اعتزل الأوثان، وفارق الأديان؛ من اليهود والنصارى والملل كلها، إلا دين الحنيفية دين إبراهيم، يوحد الله ويخلع من دونه.. وذكر شأنه للنبى (صلى الله عليه وسلم) فقال : هو أمة وحده يوم القيامة.. يبعث يوم القيامة أمة وحده.. وكان يحيى الموءودة؛ يقول للرجل رذا أراد أن يقتل ابنته : لاتقتلها، أنا أكفيك مئونتها، فيأخذها..، وكان يقول : يامعشر قريش إياكم والزنا، فإنه يورث الفقر.. فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يحشر ذاك أمة وحده، بينى وبين عيسى بن مريم – إسناده جيد – .. وأتى عمر بن الخطاب وسعيد بن زيد إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فسألاه عن زيد بن عمرو بن نفيل؛ فقال : غفر الله له ورحمه، فإنه مات على دين إبراهيم.. مات زيد

بمكة، ودفن بأصل حراء،.. قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) دخلت الجنة فرأيت لزيد بن عمرو بن نفيل دوحتين»[٣١].

ويقول البيهقى فى دلائل النبوءة : إنه التقى برجل من أهل الكتاب فقال له عليك بالدين الحنيف؛ «قال : دين إبراهيم، لم يكن يهوديا ولانصرانيا، ولكن **كان حنيفا مسلما**، ومن ثم عاد مؤمنا بدين إبراهيم وحنيفيته الإسلامية»[٣٢]. ولكلام البيهقى هنا مصداقية خاصة يدلل عليها شعر زيد ذاته الذى أفصح فيه عن «**إعلان حنيفيته تحت اسم الإسلام**، وعندما تنبأ المصطفى محمد (صلى الله عليه وسلم)، كان يترحم على زيد ويقول : قد رأيته فى الجنة يسحب ذيولا»[٣٣]. وعرف عنه الجاهليون دأبه الذى لايكل ولايمل؛ منتقلا دوما، يدعو لنبذ الأسلاف المتفرقة فى أرباب شفيعة، والعودة إلى أب واحد يجمع العرب هو إسماعيل بن إبراهيم، وإلى رب واحد هو رب إبراهيم؛ مباشرة ومن دون وسيط، نبذا للفرقة القبلية، وتهيئة للوحدة، ثم لايأتى شهر رمضان إلا ويصعد إلى غار حراء متحنفا متحنثا معتكفا يتأمل ويتعبد[٣٤].

وفى (البداية والنهاية)، يطالعنا زيد بشعره قائلا :

أسلمت؟!

أسلمت وجهى لمن أسلمت ... له الأرض تحمل صخرا ثقالا

دحاها فلما رآها استوت ... على الماء، أرسى عليها الجبالا

وأسلمت وجهى لمن أسلمت ... له المزن تحمل عذبا زلالا

إذا هى سيقت إلى بلدة ... أطاعت فصبت عليها سجالا[٣٥]

(وليلحظ قارئنا أننا نستند هنا فى أمر هذا الشعر إلى مصادره الأصلية، إضافة إلى العودة إلى حل مسألة الانتحال فيه، والأخذ بما انتهى

الباحثون لتأكيده غير منحول، فهى مهمة لها رجالها المتخصصون، وإليهم مرجعنا فى الأمر، وينسحب ذلك على كل ماأوردناه من أشعار الحنفاء)[٣٦].

وفى (السيرة النبوية) لابن هشام؛ نجد زيدا إذا دخل الكعبة قال : «اللهم لو أنى أعلم أى الوجوه أحب إليك لعبدتك به، ولكننى لا أعلمه، ثم يسجد على الأرض»[٣٧]. ويؤكد (ابن هشام) أنه حرم على نفسه أمورا - نقلها الناس عنه من بعد كتشريعات؛ لانبهارهم بشدة ورعه وعلمه وتقواه - مثل : **تحريم الخمر والميتة والدم ولحم الخنزير، وما أهل به لغير الله** من ذبائح تذبح على النصب[٣٨]. نعم؛ لقد أصبحت هذه تشريعات لمجرد امتناع زيد عنها، وربما كان امتناعه عن بعضها لا لعيب فيها، وإنما لأنه كان **لايسيغها**، ومع ذلك كان لإعجاب الناس به دور كبير فى تحولها إلى قوانين متعالية.

وتروى لنا الأخبار أن زيدا قد عاصر النبى محمد (صلى الله عليه وسلم)، وأنه التقاه؛ عن عبد الله بن عمر : أن النبى (صلى الله عليه وسلم) لقى زيدا بأسفل بلدح، فدعاه إلى تناول طعام مما يذبح للأرباب، فقال زيد للنبى : «إنى لست آكل ماتذبحون على أنصابكم»؟! ويعلل بن هشام أكل النبى قبل بعثه نبيا، لأضحيات أوقر بين الأصنام بقوله : «إن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كان يأكل مما ذبح على النصب، فإنما فعل أمرا مباحا، وإن كان لايأكل فلا إشكال»!![٣٩] ويورد لزيد شعره القائل فى فراق الوثنية :

أربـا واحـدا أم ألــف رب	أديـن إذا تقسـمت الأمـور
عزلت اللات والعزى جميعـا	كذلك يفعـل الجلـد الصـبور

فلا العزى أدين ولا ابنتيها ... ولاصنمى بن عمرو أزور
ولكن أعبد **الرحمن** ربى ... ليغفر ذنبى الرب الغفور
فتقوى الله ربكم احفظوها ... متى تحفظوها لاتبوروا
ترى الأبرار دارهم جنان ... وللكفار حامية السعير
وخزى فى الحياة وإن يموتوا ... يلاقوا ماتضيق به الصدور[٤٠]

وقال حجير بن أبى إهاب : رأيت زيد بن عمرو بن نفيل، وأنا عند صنم بوانة - بعدما رجع من الشام - وهو يراقب الشمس، فإذا زالت استقبل الكعبة، فصلى ركعة وسجدتين ثم يقول : هذه قبلة ابراهيم وإسماعيل، لا أعبد حجرا ولا أصلى إلا إلى هذا البيت حتى أموت، وكان يحج فيقف بعرفة، وكان يلبى فيقول : لبيك لاشريك لك، ولا ند لك، ثم يدفع من عرفه ماشيا وهو يقول : لبيك متعبدا لك مرقوقا »[٤١].

وقالت أسماء بنت أبى بكر : رأيت زيد بن عمرو بن نفيل قائما؛ مسندا ظهره إلى الكعبة، يقول : يامعشر قريش، مامنكم أحد على دين إبراهيم غيرى، وكان إذا خلص إلى البيت استقبله ثم قال : لبيك حقا حقا، تعبدا ورقا، البر أرجو لا الخال، وهل مهجر كمن قال، ثم يقول :

عذت بما عاذ به إبراهيم ... مستقبل الكعبة وهو قائم
يقول أنفى لك عان راغم ... مهما تجشمنى فإنى جاشم[٤٢]

ويقول أيضا :

إلى الله أهدى مدحى وثنائيا ... وقولا رصينا لاينى الدهر باقيا
إلى الملك الأعلى الذى ليس فوقه ... إله ولارب يكون مدانيا
رضيت بك اللهم ربا فلن أرى ... أدين إلها غير الله ثانيا[٤٣]

الوقفة الثانية : مع أمية بن عبد الله بن أبى الصلت الذى تصله أمه

رقية بنت عبد شمس بنت عبد مناف ببيت عبد مناف ابن قصى[٤٤] وهو صاحب القول المأثور :

كل دين يوم القيامة - إلا دين الحنيفية - زورا!

وكان يحاور أبا سفيان ويقول له :«.. والله ياأبا سفيان، لنبعثن ثم لنحاسبن، وليدخل فريق الجنة، وفريق النار»[٤٥]، وحول عقيدته فى البعث والحساب يقول شعرا :

باتت همومى تسرى طوارقها   أكف عينى والدمع سابقها
مما أتانى من اليقين ولم   أوت برأة يقصى ناطقها
أم من تلظى عليه واقدة النـ   ـار محيط بهم سرادقها
أم أسكن الجنة التى وعد الأبـ   ـرار مصفوفة نمارقها
لايستوى المنزلان ولا الأعـ   ـمال لاتستوى طرائقها
هما فريقان : فرقة تدخل الجنـ   ـة حفت بهم حدائقها
وفرقة منهم أدخلت النـ   ـار فساءتهم مرافقها[٤٦]

ويقول جواد على : إن أمية حرم على نفسه الخمر، وتجنب الأصنام، وصام، والتمس الدين، وذكر إبراهيم وإسماعيل، وكان أول من أشاع بين القرشيين افتتاح الكتب والمعاهدات والمراسلات بعبارة : باسمك اللهم (استعملها النبى محمد (صلى الله عليه وسلم) ثم تركها واستعمل بسم الله الرحمن الرحيم)، وقد روى الإخباريون قصصا عن التقاء أمية بالرهبان، وتوسمهم فيه أمارات النبوة، وعن هبوط كائنات مجنحة شقت قلبه ثم نظفته وطهرته تهيئة لمنحه النبوة[٤٧]. وأمية هو القائل فى رب الحنيفية الخلاق :

إلـه العالمين وكل أرض   ورب الراسيات من الجبال
بناها وابتنى سبعا شدادا   بلا عمد يرين ولا حبال

وســـواها وزينــها بنـــــور		من الشمس المضيئة والهلال
ومن شهب تلألأت فى دجاها		مراميـها أشـد من النصـال
وشق الأرض فأنجبت عيــونا		وأنهـارا من العـذب الزلال
وبـارك فـى نواحيـها وزكـى		بـها ماكـان من حـرث ومـال

ويعتبر أمية أحسن الحنفاء حظا فى بقاء الذكر، فقد بقى كثير من شعره وحفظ قسط لابأس به من أخباره، وسبب ذلك عند (جواد على) هو بقاؤه إلى مابعد البعثة، واتصاله بتاريخ النبوءة والإسلام اتصالا مباشرا، وملاءمة شعره بوجه عام لروح الإسلام، برغم أنه حضر البعثة ولم يسلم، ولم يرض بالدخول فى الإسلام، لأنه كان يأمل أن تكون له النبوة، ويكون مختار الأمة وموحدها ،ولذلك، **برز كنموذج للاستقامة والإيمان والتطهر والزهد والتعبد،** وقد مات سنة تسع للهجرة بالطائف **كافرا بالأوثان وبالإسلام**[٤٨]!! ويذكر الاخباريون المسلمون أنه لما سمع بخبر البعثة ذهب ليسلم، لكن بعض أهل مكة علموا بمسيره، فأرادوا رده عن غايته، فالتقوه عند القليب حيث قَبَّرَ المسلمون سادات قريش فى بدر الكبرى، ولعلم القرشيين بحكمة أمية - التى دعته من قبل إلى تقدير السادات؛ من حكماء مكة وأشرافها - فقد قالوا له : هل تدرى مافى هذا القليب. قال : لا؛ فقالوا له : فيه شيبة وربيعة وفلان وفلان، فجدع أنف ناقته، وشق ثوبه وبكى قائلا : **لو كان نبيا ماقتل ذوى قرابته،** وعاد يرسل نواحه شعرا يرثى قتلى بدر من أهل مكة، فى قصيدته الحائية التى يقول فى بعضها :

ألا بكيت على الكرام بنى الك		ـرام أولـــــى الممـــــادح
كبكـــا الحمـــام على فـــرو		ع الأيـك فى الغصـن الصـوادح
إن قد تغـير بطـن مكــــــة		فهـــى موحشــة الأباطـــح
مـــن كــل بطـريق لبطــــر		يق نقـــى اللـــون واضـــح

ومن السراطمة الجـلا جمة الملاوثة المناجح

القائلين الفاعلين الآمرين بكل صالح

المطعمين الشحم فوق الخبز شحما كالأنافح

خذلتهم فئة وهم يحمون عورات الفضائح

ولقد عنانى صوتهم من بين مستشق وصابح[49]

وقال الإمام أحمد : «حدثنا إبراهيم بن ميسرة أنه سمع عمرو بن الشريد يقول : قال الشريد : كنت ردفا لرسول الله (أى راكبا معه على بعير واحدة) فقال لى : أمعك من شعر أمية بن أبى الصلت شئ؟ قلت : نعم؛ قال : فانشدنى بيتا، فلم يزل يقول لى كلما أنشدته بيتا : إيه، حتى أنشدته مئة بيت»[50]. ومن هذا الشعر مايصح الوقوف معه كنموذج - لاشك رائع - لمعتقدات واحد من رجالات الحنيفية (مع ملاحظة أن هذا الشعر قد يختلف الأمر فى نسبته إليه أو إلى زميله فى الحنيفية زيد بن عمرو بن نفيل، وعدا ذلك فمتفق عليه)؛ فهو يقول فى إيمانه :

الحمد لله ممسانا ومصبحنا بالخير صبحنا ربى ومسانا

رب الحنيفية لم تنفد خزائنها مملوءة طبق الآفاق سلطانا

وفى إيمانه - مثل عبد المطلب وزيد - بيوم بعث ونشور؛ يقول :

ويوم موعدهم يحشرون زمرا يوم التغابن إذ لا ينفع الحذر

وأبرزوا بصعيد مستوحرز وأنزل العرش والميزان والزُبُرُ

ويستطرد شارحا مفصلا عن هذا اليوم :

عند ذى العرش يعرضون عليه يعلم الجهر والكلام الخفيا

يوم نأتيه وهو رب رحيم إنه كان وعده مأتيا

رب كُلاً حتمته النار كتابا حتمته مقضيا

ويحذر من عذاب الدار الآخرة فيقول :

وسيق المجرمون وهم عراة ... إلى ذات المقامع والنكال

فنادوا ويلنا ويلا طويلا ... وعجوا فى سلاسلها الطوال

فليسوا ميتين فيستريحوا ... وكلهم بحر النار صالى

وحل المتقون بدار صدق ... وعيش ناعم تحت الظلال

لهم مايشتهون فيها وماتمنوا ... من الأفراح فيها والكمال

وعن إبراهيم (عليه السلام) وابنه إسماعيل (عليه السلام) اللذين يرجع إليهما الحنفاء عقيدتهم؛ يحكى قصة الذبح والفداء؛ فى حوار طويل ممتع، نجتزئ منه :

ابنى إنى قد نذرتك لله شحيطا ... فاصبر فدالك خالى

فأجاب الغلام أن قال فيه ... كل شئ لله غير انتحال

فاقض ماقد نذرته لله واكفف ... عن دمى أن يمسسه سربالى

وبينما يخلع السراويل عنه ... فكه ربه بكبش حلال

وعن يونس يقول :

وأنت بفضل منك أنجيت يونسا ... وقد بات فى أضعاف حوت لياليا

وعن موسى وهارون ولقائهما بفرعون مصر يقول :

وأنت الذى من فضل ورحمة ... بعثت إلى موسى رسولا مناديا

فقلت له اذهب وهارون فادعوا ... إلى الله فرعون الذى كان طاغيا

وقولا له : أأنت سويت هذه ... بلا وتد حتى اطمأنت كما هيا

وقولا له : أأنت رفعت هذه ... بلا عمد، أرفق، إذا بك بانيا

وعن عيسى وأمه يقول :

وفى دينكم من رب مريم آية ... منبئة بالعبد عيسى بن مريم

تدلى عليها بعدما نام أهلها ... رسولا فلم يحصر ولم يترمرم

فقال : ألا لاتجزعى وتكذبى ملائكة من رب عاد وجرهم

أنيبى وأعطى ماسئلت فإننى رسول من الرحمن يأتيك بابنم

فقالت : أنى يكون ولم أكن بغيا ولاحبلى ولا ذات قيم

فسبح ثم اغترها فالتقت به غلاما سوى الخلقة ليس بتوأم

فقال لها : إنى من الله آية وعلمنى، والله خير معلم

وأرسلت ولم أرسل غويا ولم أكن شقيا، ولم أبعث بفحش ومأثم

ويقول جواد على مانصه : «وفى أكثر مانسب إلى هذا الشاعر من آراء ومعتقدات، ووصف ليوم القيامة والجنة والنار؛ تشابه كبير وتطابق فى الرأى جملة وتفصيلا، لما ورد عنها فى القرآن الكريم، بل نجد فى شعر أمية استخداما لألفاظ وتراكيب واردة فى كتاب الله والحديث النبوى قبل المبعث، فلا يمكن - بالطبع - أن يكون أمية قد اقتبس من القرآن؛ لأنه لم يكن منزلا يومئذ، وأما بعد السنة التاسعة الهجرية؛ فلا يمكن أن يكون قد اقتبس منه أيضا؛ لأنه لم يكن حيا؛ فلم يشهد بقية الوحى!! ولن يكون هذا الفرض مقبولا فى هذه الحال.. ثم إن أحدا من الرواة لم يذكر أن أمية ينتحل معانى القرآن وينسبها لنفسه، ولو كان قد فعل لما سكت المسلمون عن ذلك، ولكان الرسول أول الفاضحين له»[٥١]. وهذا - بالطبع - مع رفض فكرة أن يكون شعره منحولا أو موضوعا من قبل المسلمين المتأخرين؛ لأن فى ذلك تكريما لأمية وارتفاعا بشأنه، وهو مالايقبل مع رجل كان يهجو نبى الإسلام (صلى الله عليه وسلم) بشعره، ولايبقى سوى أنه كان حنيفيا مجتهدا استطاع أن يجمع من قصص عصره، وما كان عليه الحنفاء من رأى؛ فى شعره؛ خاصة مع ماقاله بشأنه ابن كثير : «وقيل إنه كان مستقيما، وإنه كان أول أمره على الإيمان، ثم زاغ عنه»[٥٢]. ولاريب أن الاستقامة تفرز الاستقامة وتلتقيها، وربما كتب ماكتب إبان هذه الفترة التى يحددها لنا ابن كثير،

ولاريب أنها كانت قبل البعثة النبوية؛ لأنه بعده - ولاشك - زاغ عن إيمانه واستقامته؛ إذ رأى الملك والنبوة تخرج من بين يديه؛ بعد أن أعد نفسه لها طويلا.

هوامش جذور الأيديولوچيا الحنفية

١- ثريا منقوش : التوحيديان ص١٥٩.

٢- د. جواد علي : المفصل، ج٥، ص٥٩.

٣- الألوسي : بلوغ الإرب في معرفة أحوال العرب، القاهرة، ١٩٢٤، ج٢، ص٢٢٥.

٤- ابن الجوزي : تلبيس إبليس، تصحيح محمد منير الدمشقي، المطبعة المنيرية، ص٧٤.

٥- العقاد : ابراهيم أبو الأنبياء، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٦٧، ص١٤٤.

٦- الألوسي : بلوغ الإرب، ج٢، ص٢٤٤.

٧- الشهر ستاني : الملل والنحل، المطبعة الأزهرية، القاهرة، ١٩٥١، ج١، ص٩٦.

٨- عبد القادر البغدادي : خزانة الأدب، تحقيق عبد السلام هارون، دار الكتاب العربي، ١٩٦٧، ج٢، ص٢٦٤.

٩- الجاحظ : البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة، ١٩٤٨، ج١، ص٣٠٩.

١٠- الألوسي : بلوغ الأرب، ج٢، ص٢١٩ و ٢٥٩.

١١- ابن حبيب : المحبر، ص١٣٦.

١٢- الألوسي : بلوغ الإرب، ج٢، ص٢٦٠.

١٣- ابن هشام : السيرة، ج١، ص٥١٠.

١٤- ابن حجر العسقلاني : الإصابة في تمييز الصحابة، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٣٢٣هـ، ج٣، ص٢٦٢.

١٥- ابن هشام : السيرة، ج١، ص٥١١ و ٥١٢.

١٦- الألوسى : بلوغ الإرب، ج٢، ص٢٧٢.

١٧- الأب لويس شيخو : شعراء النصرانية فى الجاهلية، مكتبة الآداب، الحلمية الجديدة، القاهرة، ١٩٨٢، ج٤، ص٦١٧، ٦١٨.

١٨- الألوسى : بلوغ الإرب، ج٢، ص٣٧٥.

١٩- ابن حبيب : المحبر، ٣٢٩.

٢٠- الألوسى : بلوغ الإرب، ج٢، ص٢٧٦.

٢١- نفسه : ص٢٧٧.

٢٢- الموضع نفسه.

٢٣- ابن حبيب : المحبر، ص٢٣٨.

٢٤- د. جمال العمرى : الشعراء الحنفاء، ص١٦٤.

٢٥- ثعلب : شرح ديوان زهير، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٤، ص٣٥.

٢٦- نفسه : ص ٢١٩.

٢٧- نفسه : ص ٢٨٤.

٢٨- جواد على : المفصل، ج ٥، ص ٢٩٠.

٢٩- الشهر ستانى : الملل والنحل، تحقيق محمد سيد كيلانى، نشر مصطفى البابى الحلبى، القاهرة، ١٩٦١، ج ١، ص ٢٣١.

٣٠- د. أحمد إبراهيم الشريف : مكة والمدينة، ص ٢٣٩ : ٢٤١و٢٤٥.

٣١- ابن كثير : البداية والنهاية، ج ٢، ص ٢٢١، ٢٢٤.

٣٢- البيهقى : دلائل النبوة، ج ٢، ص ١٢٣و ١٢٤.

٣٣- الطبرى : التاريخ، ج ٢، ص ٢٩٦.

٣٤- المسعودى : مروج الذهب، ج١، ص ٧٠. وانظر أيضا بوعلى ياسين: الثالوث المحرم، الطليعة، بيروت، ط ٤، ١٩٨٠، ص ٧٠ و ٨٥ .

٣٥- ابن كثير : البداية والنهاية، ح ٢، ص ٢٢٥.

٣٦- د. جمال العمرى : الشعراء الحنفاء.

٣٧- ابن هشام : السيرة، ج ١، ص ٢٠٨.

٣٨- نفسه : ص ٢٠٦.

٣٩- نفسه : ص ٢٠٧، ٢٠٨. وانظر أيضا البيهقى، ج ٢، ص ١٢٥، ١٢٦. وقد ذكر ابن الكلبى فى كتاب الأصنام ص ١٢ «إن النبى ذكر العزى يوما، فقال : لقد أهديت للعزى شاة عفراء وأنا على دين قومى».

٤٠- الشهر ستانى : الملل والنحل، ج ٢، ص ٢٤٨. وانظر أيضا ابن هشام، السيرة، ج ١، ص ٢٠٨ و ٢٠٩.

٤١- ابن سعد : الطبقات الكبير طبعة لندن، ٩٣٢هـ، ج ٣، ق ١، ص ٢٧٦.

٤٢- الأصفهانى : الأغانى، دار الكتب المصرية، القاهرة، د.ت، ج ٣،ص ١٢٣.

٤٣- ابن هشام :السيرة، ج ١، ص ٢٢٧.

٤٤- ابن كثير : البداية والنهاية، ج ٢، ص ٢٠٥.

٤٥- نفسه : ص ٢٠٦.

٤٦- نفسه : ص ٢٠٩.

٤٧- جواد على : المفصل، ج٥، ص ٢٨٠ و ٢٨١. وانظر ابن هشام: السيرة، ج ١، ص ٢٠٨ و ٢٠٩. وانظر أيضا ابن كثير، البداية والنهاية، ج٢، ص ٢٠٦ : ٢٠٨.

٤٨- نفسه : ص ٣٧٧ و ٣٧٨ و ٣٨٣.

٤٩- لويس شيخو : شعراء النصرانية، ج ٢، ص ٢٢٣.

٥٠- ابن كثير : البداية والنهاية، ج ٢، ص ٢١٢.

٥١- جواد على : المفصل، ج ٥، ص ٣٨٤ و ٣٨٥.

٥٢- ابن كثير : البداية والنهاية، ج ٢، ص ٢٠٥.

ظهور النبى المنتظر

يتأكد مما سبق أن قدسية الكعبة، وتحريمها، ثم تحريم شهور محددة لانطلاق قوافل التجارة، وحج العرب إليها، قد جسد - رمزيا - مكانة مكة القيادية بالنسبة إلى القبائل العربية على الجانب السياسى، وكان تحريمها ضمانا آخر لتقديسها، وأمانا من مطامع من يريد السيطرة عليها من القبائل الأخرى، مع ماأضافه بئر زمزم وقصتها مع عبد المطلب من قدسية أخرى، تضاف إلى **لبنات الأيديولوجيا الدينية المتنامية التى بلغت أوجها فى توحيد القبائل على شعائر محددة تقام فى مكة، حددت نوع الولاء، ونوع العبادة؛ مما حمل فى رحمه بذور الوحدة السياسية المقبلة التى ارتهنت بولاء القبائل لسلطان مكة**، وعندما جاء دين الإسلام العظيم، لم يلغ شعائر الحج القديمة ولا حرمة مكة، وإنما أخذ على عاتقه محاربة العصبية القبلية وتعدد الآلهة، ثم اعتبر ذاته من جهة أخرى استمراراً لدعوة إبراهيم (عليه السلام)، كما كان واضحا أن النبى (صلى الله عليه وسلم) اتخذ خطوات متسارعة لتكوين قوة عسكرية؛ قامت بدورها فى توحيد جزيرة العرب جميعا.

ومعلوم أن المصطفى (صلى الله عليه وسلم) - بعد أن طوت راحة الزمن جده عبد المطلب - شب فى كنف عمه أبى طالب، وببلوغه (صلى الله عليه وسلم) مرحلة الشباب؛ تزوج السيدة خديجة بنت خويلد (رضى) التى وصفها ابن إسحق بأنها «كانت امرأة تاجرة؛ ذات شرف ومال»[1]، ووصفها

ابن سيد الناس بأنها كانت أكثر نساء العرب مالا[٢]، وكانت تكبر النبى (صلى الله عليه وسلم) بنحو خمس عشرة سنة؛ مما وفر له (صلى الله عليه وسلم) الوقت الكافى، والاطمئنان النفسى للانصراف من السعى وراء الرزق، إلى التفكير فى شؤون قومه السياسية والدينية. وفى ذلك يقول الدكتور أحمد الشريف : «ثم إن النبى وجد بعد زواجه من خديجة بنت خويلد - وهى إحدى النساء الغنيات الشريفات فى مكة - نوعا من الراحة النفسية.. وقد كان فى هذا الزواج من العوامل التى جعلته يتخفف من بعض أعباء الحياة، ومن بعض عناء السعى؛ فخديجة الغنية بمالها التى كانت امرأة نَصَف؛ قد فارقت عهد الشباب الأول، وكانت لها تجربة إدارة أموالها - كانت أقدر على حياة زوجية هادئة رصينة، هيأت لمحمد أن يتخفف من أعباء الحياة لأفكاره الذاتية»[٣].

ومعلوم أيضا أن النبى محمد (صلى الله عليه وسلم) كان الزوج الثالث للسيدة خديجة، بعد عتيق بن عابد الذى أنجبت منه هندا، وأبى هالة الذى أنجبت منه هالة وهندا أيضا[٤]، وقد أوضح القرآن الكريم فضل هذه السيدة على نبيه (صلى الله عليه وسلم) وعلى المسلمين؛ فى قوله تعالى : «ووجدك عائلا فأغنى»، وكان النبى (صلى الله عليه وسلم) يقول «.. آمنت بى حين كذبنى الناس، **وواستنى بمالها حين حرمنى الناس**».

وعندما تزوج المصطفى (صلى الله عليه وسلم) من السيدة خديجة (رضى)؛ أكثر الناس من الكلام فى هذه الزيجة، وهنا يروى لنا ابن كثير «.. أن عمار بن ياسر كان إذا سمع مايتحدث به الناس عن تزويج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) خديجة، وما يكثرون فيه؛ يقول : أنا أعلم الناس بتزويجه إياها، إنى كنت له تربا، وكنت له إلفا وخدنا، وإنى خرجت

مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ذات يوم؛ حتى إذا كنا بالحزورة؛ أجزنا على أخت خديجة وهى جالسة على أدم تبيعها، فنادتنى؛ فانصرفت إليها، ووقف لى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقالت : أما بصاحبك هذا من حاجة فى تزويج خديجة؟ قال عمار : فرجعت إليه فأخبرته، فقال : بلى لعمرى؛ فذكرت لها قول رسول الله (صلى الله عليه وسلم)؛ فقالت : اغدوا علينا إذا أصبحنا؛ فغدونا عليهم، فوجدناهم قد ذبحوا بقرة، وألبسوا أبا خديجة حلة، وصُفرت لحيته (أى صبغت بالحناء)، وكلمت أخاها؛ فكلم أباه وقد سقى خمرا، فذكر له رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ومكانه، وسأله أن يزوجه؛ فزوجه خديجة، وصنعوا من البقرة طعاما فأكلنا منه، ونام أبوها، ثم استيقظ صاحيا فقال : ماهذه الحلة؟ وما هذه الصفرة؟ وهذا الطعام؟؛ فقالت له ابنته التى كانت قد كلمت عمار بن ياسر : هذه حلة كساكها محمد بن عبد الله ختنك، وبقرة أهداها لك فذبحناها حين زوجته خديجة؛ فأنكر أن يكون زوجه، وخرج يصيح حتى جاء الحجر، وخرج بنوهاشم برسول الله (صلى الله عليه وسلم) فكلموه؛ فقال : أين صاحبكم الذى تزعمون أنى زوجته خديجة؟ فبرز له رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فلما نظر إليه قال : إن كنت زوجته فسبيل ذاك، وإن لم أكن فعلت فقد زوجته»[٥]!!

أما عمه أبو طالب فألقى فى العرس خطبة؛ منها قوله «.. فنحن سادة العرب وقادتها، وأنتم أهل ذلك كله، لاينكر العرب فضلكم.. ورغبنا فى الاتصال بحبلكم وشرفكم... وأمرت خديجة جواريها أن يرقصن ويضربن الدفوف، وفرح أبو طالب فرحا شديدا»[٦].

وبعدها أخذ محمد (صلى الله عليه وسلم) يتابع خطوات جده عبد المطلب إلى غار حراء؛ مما حول هذا الكهف إلى مكان مقدس، ودخل التاريخ

دون ملايين مثله، وبالحنيفية آمن، ولم يكد يبلغ الأربعين من عمره حتى حُسم الأمر، بإعلانه أنه نبى الأمة، بعد أن أوحى إليه إله إبراهيم «.. أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا - ٢٣ النحل».

وكما حدث مع أمية بن عبد الله حدث مع محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم)؛ فتحدثنا الأخبار أن راهبا مسيحيا يدعى (بحيرا) قد توسم فيه أمارات النبوة، واكتشف خاتمها فى كتفه. ويحدثنا النبى (صلى الله عليه وسلم) عن نفسه فيقول : «أنا دعوة إبراهيم، وبشرى عيسى، رأت أمى حين حملت بى أنه خرج منها نورا أضاء لها قصور الشام، واسترضعت فى بنى سعد بن بكر، فبينا أنا مع أخ لنا خلف بيوتنا نرعى بُهُمًا، إذ أتانى رجلان عليهما ثياب بيض؛ بطست من ذهب مملوء ثلجا، فشقا بطنى واستخرجا منه علقة سوداء فطرحاها، ثم غسلا قلبى وبطنى بذلك الثلج حتى أنقياه»!![٧]

وتقول سيرة بن هشام : إن محمداً (صلى الله عليه وسلم) لما بادأ قومه بالإسلام؛ لم يجدوا فى دعوته غضاضة، ولربما لم يكترثوا لها، ولعل مرجع ذلك إلى حرية الاعتقاد التى كانت عرفا مسنونا، عرفا حتمته المصالح التجارية فى مكة؛ فكان المسيحى فيها يعيش إلى جوار الحنفى إلى جانب اليهودى، مع الصابئ والزراد شتى، وعبدة النجوم، وعبدة الجن، وعبدة الملائكة، وعبدة الأسلاف وتماثيل الشفعاء؛ دونما قهر أو فرض أو إجبار؛ حتى إن **العبد كان يظل على دين يخالف دين سيده**؛ دون أن يخشى فى ذلك مساءلة أو ملامة، وبرغم أن محمدا (صلى الله عليه وسلم) من الفرع الهاشمى؛ فإن حزب «عبد الدار - عبد شمس - نوفل» لم يهتم كثيرا فى البداية للدعوة الجديدة؛ خاصة أن محمداً (صلى الله عليه وسلم) لم يخرج آنذاك عن أطر عرفهم المسنون فى حرية الاعتقاد؛ فلم يجبر أحدا لاعتناق

دعوته، كما لم يحاول فرضها أو اعتبارها الديانة الوحيدة الواجب اعتناقها، وتشهد بذلك الآيات الكريمة :

«لكم دينكم ولى دين - ٦ الكافرون».

«أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين؟ - ٩٩ يونس».

«إن أنت إلا نذير - ٢٣ فاطر».

«وماجعلناك عليهم حفيظا وماأنت عليهم بوكيل - ١٠٧ الأنعام».

«واصبر على مايقولون واهجرهم هجرا جميلا - ١٠ المزمل».

ومع أن المناوشات الكلامية التى دارت بين المكيين ومحمد (صلى الله عليه وسلم) لم تصل بالقوم إلى حافة شفير الحرب مرة أخرى؛ فإنها نبشت الجمر الثاوى فى القلوب؛ بعدما أعلن محمد (صلى الله عليه وسلم) دعوته؛ مطالبا أهل مكة باتباعه؛ فكان حتما أن يتساءل الناس، لكن تساؤل الوليد بن المغيرة (الملقب بالوحيد لمكانته بين سادات مكة)، والأخنس بن شريق (كبير من رؤوس ثقيف) - كان تساؤلا مهينا لشخص النبى (صلى الله عليه وسلم)؛ فقد قالا : أمفتون محمد أم مجنون؟[8]، فكان أن ردت لهما الآيات الكريمة **الصاع صاعين** «بأيكم المفتون؟... هماز مشاء بنميم، منّاع للخير معتد أثيم، عتل بعد ذلك زنيم - ٥ : ١٢ القلم»، - **والزنيم هو ابن الزانية** - ثم يخاطب الله نبيه فى شأن الوحيد قائلا له : «ذرنى ومن خلقت وحيدا، وجعلت له مالا ممدودا، وبنين شهودا، ومهدت له تمهيدا، ثم يطمع أن أزيد، كلا إنه كان لآياتنا عنيدا، سأرهقه صعودا، إنه فكر وقدر، **فقتل كيف قدر، ثم قتل كيف قدر** - ١١ : ٢٠ المدثر»، وفعلا مات الوليد قتيلا بسهم مسموم، **قتله الله**. ثم قامت الآيات تشبه رؤوس القوم الذين لم يدركوا أبعاد تلك الدعوة العظمى ومراميها الكبرى؛ **بالحمير**؛ فتقول : «فمالهم عن التذكرة معرضين، كأنهم حمر مستنفرة، فرت من

قسورة - ٤٩ : ٥١ - المدثر».

حتى ذلك الحين؛ كانت قريش لاتزال فى هدوء وترقب، لكن محمدا (صلى الله عليه وسلم) الذى صمم على إتمام الأمر مهما تكلف من مشقة، **قام يؤلب العبيد على أسيادهم** يناديهم : «اتبعونى أجعلكم أنسابا، .. والذى نفسى بيده لتملكن كنوز كسرى وقيصر»، وهنا بدأ القوم يشعرون بحجم الخطر الآتى؛ فالأرستقراطية القرشية حتمت مصالحها وجود العبيد، بل أن يتكون جيشهم الذى يحمى التجارة من هؤلاء العبيد فى أغلبه، وبات الأمر أمر حياتهم ومعاشهم، ثم إن دعوة النبى (صلى الله عليه وسلم) إلى جعلهم أنسابا التى تمثلت فى عتقه لعبده زيد بن حارثة ثم إعطائه أفضل النسب وأشرفه، بتبنيه إياه؛ كان يعنى لبقية الدهماء من الأعراب أملا عظيما؛ لما كان للنسب من خطورة وأهمية؛ تعطى صاحبها حماية عشائرية وقبلية، ثم إنه يعدهم بأموال أعظم؛ بأموال كسرى وقيصر؛ إن هم تبعوه، وعندما وصلت قريش إلى ذلك الفهم؛ أصبح النبى (صلى الله عليه وسلم) فى نظرهم، وحسب منطقهم المصلحى؛ **مجرد مغامر طموح يهدف لغرض سياسى يبدأ بضرب قريش فى مقتل؛ فى مصالحها التجارية**، حتى إذا تهيأ له الأمر امتلك أمر الحجاز، وزحف على ممالك الروم والعجم، وما يتبع ذلك بالضرورة فى منطق العشائر من رفع شأن بيت هاشم، وخفض شأن بيت عبد الدار وعبد شمس ونوفل؛ **هكذا تصوروا الأمر العظيم!!**

ثم هاهو ينزع عنهم صفة أخرى ترتبط تماما بمصالحهم التجارية؛ تلك الصفة التى أكسبها لهم انكسار حملة الفيل على حدود مكة؛ صفة أنهم (أهل الله)، وينادى أهل مكة : «قل ياأيها الكافرون.. لكم دينكم ولى دين - سورة الكافرون»، نعم؛ مازالت الآيات تبرز التسامح الدينى (لكم دينكم ولى دينى)، لكنها نعتت أهل مكة بأنهم الكافرون؛ برغم تأكيدها

من قبل أنهم قوم يؤمنون بالله رب العرش خالق السماوات والأرض :

«ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض، وسخر الشمس والقمر، **ليقولن الله**، فأنى يؤفكون - ٦١ العنكبوت».

«قل من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم، **سيقولون الله** قل أفلا تتقون، قل من بيده ملكوت كل شئ وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون، **سيقولون الله**، قل فأنى تسحرون - ٨٦ : ٨٩ المؤمنون».

«ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن : **خلقهن العزيز العليم** - ٩ الزخرف».

وسعيا وراء تعليل؛ اكتشفت قريش أن إيمانها بالشفعاء هو الكفر؛ خاصة عندما بدأ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يعيب أربابهم؛ فاستنتجوا **أن محمدا (صلى الله عليه وسلم) قد جعل شرط الإيمان الصحيح يمر عبر الإيمان به كرسول لإله واحد**؛ انطلاقا من قرن الشهادة له مع الشهادة لله؛ في شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فهو في فهمهم العنيد، إنما يطلب منهم الاعتراف بسيادته عليهم بهذه الشهادة، ويطلب توحدهم جميعا تحت راية قيادته وحده، بسلخ كل الشفاعات إلا شفاعته، ويذكر لنا الطبري أن النبي (صلى الله عليه وسلم) حينما دعا قومه لما بعثه الله.. لم يبعدوا منه أول مادعاهم، وكادوا يسمعون له حتى ذكر طواغيتهم[٩] وهو ذات ما أوضحته رواية عن لقاء وفد قريش وفيه أبو الحكم، بأبي طالب وابن أخيه(صلى الله عليه وسلم)؛ ليطلب من محمد (صلى الله عليه وسلم) الكف عن سب أربابهم ويتركونه لإلهه، فكان رد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عليهم: «أي عم، أو أدعوهم إلى ما هو خير لهم منها؟ قال : وإلام تدعوهم؟ ، قال : **أدعوهم أن يتكلموا بكلمة تدين بها لهم العرب، ويملكون بها العجم**!! فقال أبو جهل (التسمية

الإسلامية لأبى الحكم) من بين القوم: ماهى؟ وأبيك لنعطيكها وعشر أمثالها »، وكانت الكلمة هى الشهادة الإسلامية؛ فنفروا منه وتفرقوا[١٠].

وهنا تحول أرق الحزب المناوئ وترقبه، إلى تحفز واستنفار، خاصة عندما أخذت الآيات الكريمة فى فواصل قصيرة مؤثرة، تؤجج الحمية القتالية، وما يحمله ذلك من احتمال وقوع المجابهة العسكرية، وتقول: «والعاديات ضبحا، فالموريات قدحا، فالمغيرات صبحا، فأثرن به نقعا - ١:٤ العاديات»، هذا مع التحول الذى بدأ يطرأ فى سلوك النبى تجاههم ، وتحوله عن الصبر الجميل إلى الهجوم، وما جاء فى رواية عبد الله بن عمرو بن العاصى ، عندما غمز أشراف قريش من قناة النبى (صلى الله عليه وسلم) وهو يطوف بالكعبة ، فكان أن التفت إليهم هاتفا: «أتسمعون يامعشر قريش، أما والذى نفسى محمد بيده، لقد جئتكم بالذبح»[١١]، وبر النبى (صلى الله عليه وسلم) بقسمه فى بدر الكبرى!

هوامش ظهور النبى المنتظر

١- ابن هشام : فى كتاب الروض للسهيلى، ج ١، ص ٢١٢.

٢- ابن سيد الناس : عيون الأثر، ج ١، ص ٢٦٢.

٣- د. أحمد الشريف : مكة والمدينة، ص ٢٥٠، ٢٥١.

٤- الحلبى : السيرة، ج ١، ص ٢١٢، ٢٢٩.

٥- ابن كثير : البداية والنهاية، ج ٢، ص ٢٧٤.

٦- الحلبى: السيرة، ج ١، ص ٢٢٧.

٧- الطبرى : التاريخ، ج٢، ص ٢٩٤.

٨- ابن هشام : السيرة، ج ١، ٢٤٣.

٩- الطبرى : التاريخ، ج٢، ص ٣٢٨.

١٠- نفسه : ص ٢٤١.

١١- نفسه : ص ٣٣٢.

وعظم الأمر على الحزب المناوئ فذهب رؤوس القوم : عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو سفيان ابن حرب بن أمية، وغيرهم من الأشراف؛ لمقابلة أبى طالب عم محمد (صلى الله عليه وسلم)؛ ليثنيه عما اعتزم؛ فكان أن ردهم أبو طالب ردا حسنا، ولم يتوقف النبى عما اعتزم؛ فعادوا إلى أبى طالب مرة أخرى؛ فقالوا له :« ياأبا طالب، إن لك سنا وشرفا ومنزلة فينا، وإنا قد استنهيناك عن ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإنا والله لانصبر على هذا؛ منْ شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا، حتى تكفه عنا، أو ننازله وإياك **حتى يهلك أحد الفريقين**.. فعظم على أبى طالب فراق قومه وعداوتهم».

ودعا أبو طالب ابن أخيه، وكاشفه بما كان من أمر بنى العمومة «فقال : يا ابن أخى، إن قومك قد جاءونى فقالوا : كذا وكذا.. فابق علىّ وعلى نفسك، ولا تحملنى من الأمر مالا أطيق»؛ محاولا بذلك وقف أمر قد يجر حربا لاتبقى تجارة ولانسلا، لكن **هذا الاجتماع التاريخى** بين العم وابن أخيه، لم ينته كما بدأ، بدليل أن أبا طالب ختمه بقوله :«اذهب يا ابن أخى فقل ما أحببت، **فوالله لاأسلمك لشئ أبدا**». وكانت النتيجة التى سجلتها كتب التاريخ الإسلامية أن «.. حقب الأمر، وحميت الحرب، وتنابذ القوم، وبادأ بعضهم بعضا»، وقام حزب عبد الدار يستجمع حلفاءه، لمواجهة مابدأت نذره فى الأفق؛[1] برغم نداء بعض العقلاء، مثل عتبة بن ربيعة

الذى التقى النبى، **وأدرك الأهداف الكبرى للدعوة**؛ فقام يقول لقريش :«يامعشر قريش، أطيعونى واجعلوها بى، وخلوا بين هذا الرجل وماهو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب **فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به**»[٢].

وعلى الطرف الآخر؛ **أعلن الهاشميون أنهم قد منعوا فتاهم**؛ برغم عدم متابعة دعوته دينيا؛ اللهم إلا أفرادا فرادى، فكانت عصبيتهم القبلية درعا قويا لدعوة حفيد عبد المطلب، التى استنفرت الحزب المناوئ الذى أصر على زعمه أنها **دعوة لو كتب لها النجاح لصار الأمر كله إلى البيت الهاشمى.** وفى روايتها عن هذه المنعة الهاشمية؛ تقول سيرة ابن هشام :«وقد قام أبو طالب حين رأى قريشا يصنعون مايصنعون فى بنى هاشم وعبد المطلب؛ فدعاهم إلى ماهو عليه من منع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) والقيام دونه، فاجتمعوا إليه وقاموا معه، وأجابوه لما دعاهم إليه، إلا ما كان من أمر أبى لهب»[٣].

وأبو لهب هو عبد العزى بن عبد المطلب عم النبى، ولقب بهذا اللقب لحمرة شديدة فى وجهه وحسن، وهو من تبّت الآيات الكريمة يديه؛ لأنه كان حريصا على مسالمة بيت عبد شمس المناوئ؛ لأن امرأته - فى الآيات حمالة الحطب - كانت فى الصدارة من شريفات البيت الأموى، وكانت شقيقة أبى سفيان رأس هذا البيت.

ويتجلى مدى قدرة هذه المنعة الهاشمية وقوتها، وأثرها على نفوس الأطراف المناوئة؛ فى قول نعيم بن عبد الله لعمر بن الخطاب، وقد التقاه يسعى لقتل محمد (صلى الله عليه وسلم) :«والله لقد غشتك نفسك فى نفسك ياعمر، **أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت**

محمدا؟»، وبهذا يمكن إدراك ماوصل إليه حال بنى العمومة وحزبهم، وأبناء عبد مناف الهاشميين الذين ظهر فيهم نبى الأمة وموحد كلمتها، لكن كان كل الهم لدى الأحلاف أنه يمكنه بدعوته حيازة كل الألوية لبيته وعشيرته.

وفى أشعار أبى طالب اعتزاز واضح بأهله وبنيه ورهطه؛ مع عمق غير خاف فى النظرة السياسية للوضع المكى، ومثال لذلك قوله :

إذا اجتمعت يوما قريش لمفخرة   فعبد مناف سرها وصميمها
وإن حصلت أشراف عبد مناف   ففى هاشم أشرافها وقديمها
وإن فخرت هاشم يوما فإن محمدا   هو المصطفى سرها وكريمها
تداعت قريشا غثها وسمينها   علينا، فلم تظفر وطاشت حلومها(٤)

نعم؛ ليحلم بنو عبد الدار؛ ليحلم نوفل؛ ليحلم بنو عبد شمس؛ ليحلم الأمويون ماشاءوا، فالرؤية التنبؤية لأبى طالب، تتوقع وتخطط؛ لتطيش هذه الحلوم؛ **لأن هاشما ستقف مع محمد (صلى الله عليه وسلم) حتى تنصره وتنتصر به.** ويوضح جانب آخر من شعر أبى طالب سر هذا الجهر فى مواجهة حزب عبد الدار بقوله :

ولما رأيت القوم لاود فيهم   وقد قطعوا كل العرى والوسائل
وقد صارحونا بالعداوة والأذى   وقد طاوعوا أمر العدو المزايل
وقد حالفوا قوما علينا، وقد أظنهم   يعضون غيظا خلفنا بالأنامل
أحضرت عند البيت رهطى وإخوتى   وأمسكت من أثوابه بالوصائل(٥)

ويفهم من أبيات أبى طالب هنا أنه لما رأى العداوة بادية فى الحزب المناوئ، وأنهم برغم عرى القرابة حالفوا ضدهم أحلافا؛ غيظا وكمدا وحسدا، لأن منهم نبيا، جمع رهطه وأهله وتعاهدوا عند الكعبة وهم يمسكون بأرديتها. وعلى الطرف الآخر؛ نجد عمرو بن هشام الملقب بأبى جهل يقول : «ماذا سمعت؟ تنازعنا نحن وبنى عبد مناف الشرف؛ أطعموا فأطعمنا،

وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسى رهان، قالوا : منا نبى يأتيه الوحى من السماء!! والله لانؤمن به ولانصدقه»[٦]، ثم يرسل شعره قائلا :

أتونا بإفك كى يضلوا عقولنا وليس مضلا إفكهم عقل ذى عقل[٧]

ومن الجدير بالذكر أن عمرو بن هشام لم يكن رجلا أحمق أو أبله؛ بدلالة تحاكم العرب إليه فى النفورة والمشاورة والمخايرة منذ حداثته؛ حتى إنهم أدخلوه دار الندوة صبيا، وقال عنه حكيم فزارة؛ قطبة بن سيار؛ لما تنافر إليه ابن طفيل وعلقمة بن علاثة : عليكم بالحديد الذهن، الحديث السن[٨]. وعلى ذلك؛ فلم يكن أمام عبد الدار وعبد شمس - منعا للحرب - إلا أن تطبق على بنى هاشم **عقوبات التجار**؛ بمحاصرتهم اقتصاديا؛ فكان أن جاءها الرد من أبى طالب بتحد هاشمى سافر فى قوله :

كذبتم ورب البيت نترك مكة ونظعن، إلا أمركم فى بلابل

كذبتم وبيت الله نبزى محمدا ولما نطاعن دونه ونناضل

ونسلمه، حتى نصرع حوله ونذهل عن أبنائنا والحلائل

وينهض قوم فى الحديد إليكم نهوض الروايا تحت الصلاصل

وأما لعمر الله أن جد ما أرى لتلتبسن أسيافنا بالأماثل

فإن يلقيا، أو يمكن الله منهما نكل لهما صاع بصاع المكايل[٩].

وإلى رؤوس حزب عبد الدار: أبى الوليد، وعتبة، وأبى سفيان، يتوجه مستميلا متحببا محذرا :

وسائل أبا الوليد : ماذا حبوتنا بسعيك فينا معرض، كالمخاتل

وكنت امرأ ممن يعاش برأيه ورحمته فينا ولست بجاهل

فعتبة : لاتسمع بنا قول كاشح حسود كذوب مبغض ذى دغاول

وفر أبو سفيان عنى معرضا   كما مر قبل من عظام المقاول
يفر إلى نجد ويرد مياهه   ويزعم : أنى لست عنكم بغافل
ويخبرنا فعل المناصح أنه: شفيق، ويخفى عارمات الدواخل[١٠]

ولما لايجد ودا؛ يعلن أهداف البيت الهاشمى السياسية، بوضوح جهير ومباشر، فيقول :

جزى الله عنا عبد شمس ونوفلا   عقوبة شر عاجلا غير آجل
بميزان قسط لايخس شعيرة   له شاهد من نفسه غير عائل
فأبلغ قصيا : أن سينشر أمرنا   و[illegible] بعدنا بالتخاذل
وكان لنا حوض السقاية فيهم   ونحن [illegible] من غالب والكواهل
شباب من المطيبين وهاشم   كبيض السيوف بين أيدى الصياقل
فما أدركوا ذحلا، ولاسفكوا دما،   **وماحالفوا إلا شرار القبائل**
بضرب ترى الفتيان فيه كأنهم   ضوارى أسود فوق لحم الخرادل[١١]

وعن شدة تعلقه بابن أخيه وكلفه به، وأنه لولا المسبة والعار لآمن بدعوته الدينية، يقول :

لعمرى، لقد كلفت وجدا بأحمد   وإخوته دأب فى حومة المجد فاصل
فلازال فى الدنيا جمال لأهلها   وزينا لمن والاه رب المشاكل
فمن مثله فى الناس أى مؤمل   إذا قاسه الحكام عند التفاضل
لَكُنَّ اتبعناه على كل حالة   من الدهر، جد غير قول التهازل
لقد علموا أن ابننا لامكذب   لدينا، ولايعنى بقول الأباطل[١٢]
فأصبح أحمد فينا فى أرومة   تقصر عن سوء المتطاول
حدبت بنفسى وحميته   ودافعت بالذرا والكلاكل
فأيده رب العباد بنصره   وأظهر دينا حقه غير باطل[١٣]

هوامش العصبية والسياسة

١- ابن هشام : السيرة، ج ١، ص ٢٣٨ و ٢٤١.

٢- نفسه : ص ٢٦٢.

٣- نفسه : ص ٢٤٢.

٤- الموضع نفسه.

٥- نفسه : ص ٢٤٥.

٦- ابن سيد الناس : عيون الأثر، ج ١، ص ١٤٠.

٧- ابن هشام : السيرة، ج ٢، ص ٢٤٧.

٨- جواد على : المفصل، ج ٥، ص ٢٣٥.

٩- الشهر ستانى : الملل والنحل، ج ٢، ص ٢٤٠. وانظر ابن هشام، السيرة، ج ١، ص ٢٤٧.

١٠- ابن هشام : السيرة، ج ١، ص ٢٤٨ و ٢٤٩.

١١- نفسه : ج ٢٢، ص ٢٤٩ و ٢٥١.

١٢- نفسه : ج ١، ص ٢٥١.

١٣- البيهقى : دلائل النبوة، ج ٢، ص ٤٤٤.

هذا مابلغ إليه أمر مكة: المحطة الكبرى على طريق «ترانزيت» العالم؛ تلك التى تحولت إلى حاضرة كبيرة؛ فى وقت تصاعد فيه الشعور القومى العربى فى بطاح الجزيرة على اختلافها، وبلغ مداه فى تضامن متأجج مع عرب قبائل شيبان وعجل وبكر بن وائل ضد الفرس العجم، والفرح الاحتفالى الهائل الذى امتد شهورا فى بقاع الجزيرة بانتصار هذا الحلف على الفرس أو العجم، والذى ترك أثره فى الفهم العربى الكلاسيكى الذى يقسم الناس إلى عرب وعجم، والفرح الثانى الذى تمثل فى هرع القبائل العربية جميعا إلى الجنوب، تزفها البشرى ويدفعها الإحساس الفخرى لتهنئ سيفا بن ذى يزن بالاستقلال عن الأحباش؛ فقد كانت قبائل بكر وشيبان وعجل هى محطة المرور الأخيرة والكبرى على حدود فارس الغربية مع الجزيرة العربية. أما اليمن فكانت منذ القديم أخطر محطة تجارية على خطوط العالم القادمة من الصين والهند وشرقى إفريقيا؛ لتصب فى بحر رمال الجزيرة؛ لتحملها سفن الصحارى إلى الشمال حيث إمبراطوريات ذلك الزمان، **فالأمر كان نزعة قومية واضحة؛ ترتبط بمصالح اقتصادية أشد وضوحا**؛ حتى إن القرآن الكريم نفسه عندما جاء بعد ذلك، أبدى تعاطفه الكريم مع أصحاب الأخدود فى اليمن، وهم مسيحيون اضطهدوا من قبل ذى نواس اليهودى المعضد من عجم فارس، ثم أبدى تعاطفه مع الروم

بحسبانهم امتدادا طبيعيا للخط التجارى المكى؛ فإنه من وجهة نظر دينية بحت؛ إنما عاضد الديانة المفترض أنها الأصح قبل ظهور الإسلام، وبحسبانها الديانة الناسخة للديانة اليهودية، وبرغم ذلك؛ فإن القومية تبرز بوضوح جلى فى موقفه من أصحاب الفيل؛ عندما يصبح الصراع بين المسيحية (برغم كونها كانت الديانة الصادقة فى المنظور الدينى قبل ظهور الإسلام) وبين مكة رمز العروبة والروح القومية (برغم كونها كانت حتى عام الفيل مركزا من أخطر المراكز الوثنية فى العالم) وبالطبع؛ مع اعتبار العامل الاقتصادى الذى دفع الحبشة لمحاولة احتلال مكة التى لم تعد فى ذلك الوقت مجرد محطة تأخذ العشور والضرائب، وإنما تحول أهلها إلى امتلاك هذه التجارة، فكانوا يشترون تجارة اليمن والشام بأموالهم، ويحققون الفائض الذى يحددونه هم أصلا.

وقد أتاح لمكة هذا الدور المتعاظم عامل آخر؛ هو الضعف الذى طرأ على المدينة المنافسة (يثرب)؛ برغم أنها كانت مهيأة قبل مكة لأخذ هذا الدور؛ لوجود اليهود كمركز سياسى واقتصادى عريق فيها، لكن هذا الوجود ذاته كان عامل التدهور والضعف؛ نتيجة عنصر صراع داخلى؛ تمثل - فى انقسام طائفى بين الأوس والخزرج من ناحية، واليهود من ناحية أخرى، وقد رأى اليهود من جهتهم أن وجود هذا العنصر العربى يمكن أن يكتسب تعاطف عرب الجزيرة معه، فكان أن حدثت الوقيعة بين القبيلتين، وأسهمت قريش بدورها فى إشعال الحرب لضرب يثرب كمركز منافس؛ فوقفت إلى جوار الأوس يومى معبس ومضرس، لكن توجهات البيت الهاشمى فى مكة رأت من مصلحتها محالفة الخزرج، وتوثيق هذا التحالف بعقد الزيجات المباركة.

لكن يثرب أخذت فى الانهيار السريع أمام القوة المكية الطالعة؛ مما دفع بعقلائها إلى محاولة الإسراع فى رأب الصدع؛ بتوحيد المدينة فى كتلة

سياسية متوحدة تحت حكم ملك واحد يرضى عنه الجميع، وفى هذا الوقت؛ كان كل الرجال المفترض فيهم قدرات الرياسة، والأكثر قبولا للترشيح للرياسة، وكانوا موضع التبجيل والاحترام وأصحاب كلمة نافذة، قد مات أكثرهم في وقعة بعاث بين الأوس والخزرج، ولم يبق سوى الرؤساء الثانويين، ومع ذلك بدأ القوم إنقاذ مايمكن إنقاذه بالاصطلاح على رجل منهم، هو عبد الله بن أبى سلول ولكن الخزرج سرعان ماتراجعت إزاء التطورات الجديدة فى مكة، وأرسلوا وفودهم إلى ابن اختهم محمد (صلى الله عليه وسلم) فى مكة، وقاموا بمحاولة اقناع الأوس بالأمر لماله من وجاهه من عدة نواحى: الأولى أنه نبى مؤيد من الله وفى ذلك كفالة النصرة، والثانية أنه طرف محايد، فلاهو أوسى ولاهو خزرجى، أما الناحية الثالثة والأهم سياسيا واقتصاديا فهى، أنه **بخروجه من مكة إليهم يمكنهم بقيادته شن الحرب على أهل مكة بل قطع خطوطها التجارية مع الشام التى تمر على المدينة، وفى** ذلك لالوم ولاتثريب؛ **فهم إنما يتبعون أمر السماء، ثم إن قائدهم إنما فرد مكى ومن أهل مكة أنفسهم**، ثم إن اليهود كانوا فى تمام الرضا عن هذا التوجه، والآيات الكريمة تكرم أنبياء بنى إسرائيل، وتفضل النسل الإسرائيلى على العالمين، ثم إن هذا النبى الآتى يصلى إلى الشام قبله اليهود، وأتباعه فى المدينة يصلون إلى الشام، بل ويصومون الغفران، كما أنه يؤكد حرية الاعتقاد تماما، وتؤكد الآيات السماوية التى يحملها «إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين، من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا، فلهم أجرهم عند ربهم، ولاخوف عليهم ولاهم يحزنون - ٦٣ البقرة، وأن الله يقول لنبيه فى آياته الكريمة :«وكيف يحكمونك وعندهم **التوراة فيها حكم الله** - ٤٣ المائدة»، و«إنا أنزلنا **التوراة فيها هدى ونور** - ٤٤ المائدة»، وأن النبى محمد (صلى الله عليه وسلم) هو «الذى يجدونه

مكتوبا عندهم فى التوراة... - ١٥٧ الأعراف»، وأنه يخاطبهم بالموحى اليه «...إنى رسول الله إليكم، مصدقا لما بين يدى من التوراة... - ٦ الصف». ويلقى الدكتور أحمد الشريف الضوء على الأحداث الآتية بعد سنوات؛ فيقول :«ولقد عالج النبى (صلى الله عليه وسلم)موقف اليهود فى براعة وقدرة .. تغلب عليه حساسية الموقف التى كانت قائمة، بمحالفة اليهود مع بعض بطون الأوس والخزرج، وكانت هذه المحالفات لايزال لها أثر فى نفوس هذه البطون، فكان لابد أن يعمل النبى حسابا لهذا الشعور، فنرى النبى (صلى الله عليه وسلم) **يصانع اليهود مرة**، ويجادلهم مرة أخرى، ويصبر عليهم حتى تحين الفرصة، **فيقلم أظفارهم**، ثم يرى نفسه آخر الأمر مضطرا إلى **التخلص منهم نهائيا**»[1]، أما الأهم لأهل يثرب جميعا فهو أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) اتخذ من يثرب مركزا وعاصمة، وقوى قدرتها على المنافسة مع مكة؛ **فساوى بينها وبين مكة من ناحية القدسية**، فأعلنها مدينة محرمة حرمة مكة، أو كما قال :«إن لكل نبى حرما، وإنى حرمت المدينة، كما حرم إبراهيم (صلى الله عليه وسلم) مكة».

المهم إن الأحداث تتابعت فى مكة، واستمرت المنعة الهاشمية للنبى (صلى الله عليه وسلم) الذى اتبع خطى جده - كما اتبع خطواته إلى حراء من قبل - وأعلن أنه نبى الفطرة الحنفية التى نادى بها الأولون السابقون، ونادى بها عبد المطلب. ومثلما أتى جده الرئى وغته ثلاثا ليحضر زمزم فقد أتاه جبريل وغته ثلاثا، وكما اهتم عبد المطلب بتأكيد التحالف مع الأخوال من أهل الحرب فى يثرب اهتم حفيده أيضا بالأمر؛ فكان يلقى **أهل الحرب اليثاربة** عند العقبة، إلى أن هيئوا مدينتهم لاستقباله؛ بعد أن مات عمه أبو طالب، واشتد ضغط الأحلاف على الهاشميين، وكان الحل **أن يغادر إلى الأخوال ليرفع الضغط عن الأعمام**، فى الوقت الذى كان فيه لجده عبد

المطلب مكانة خاصة، وأثر لايمحى من نفسه؛ تبرره حميته القتالية عند المعارك التى كانت تدعوه لأن يهتف : أنا النبى لا كذب، أنا ابن عبد المطلب، كأنى به ينادى طيف جده : أي جدى، هآنذا أحقق حلمك!!

وقد ظل دور بنى هاشم قائما إلى مابعد خروج النبى (صلى الله عليه وسلم) من مكة إلى يثرب، بل إنهم لم يتركوه يغادر إلا بعد أن استوثقوا لمنعه أخواله اليثاربة واطمأنوا إليها، ويظهر ذلك من ذهاب عمه العباس معه - وهو بعد على دين قومه - للقاء أهل الحرب؛ فى بيعة العقبة الكبرى، ولم يذهب - فيما يقول الطبرى - إلا لأنه «أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويستوثق له»، وكان هو أول المتكلمين فى هذا الاجتماع هائل الخطورة الذى شكل على وجه الزمان منعطفا حادا، غير وجه التاريخ تماما؛ فقال :

«يامعشر الخزرج : إن محمدا منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا؛ ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو فى عزة فى قومه، ومنعة فى بلده، وقد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه؛ فأنتم وماتحملتم ذلك، وإن كنتم مسلميه وخاذليه، بعد خروجه إليكم، فمن الآن دعوة، فإنه فى عزة فى قومه ومنعة فى بلده»[٢].

ويخبرنا البيهقى أن هذا الوفد العظيم الذى يتكون من سبعين رجلا؛ ممثلين لأهل المدينة؛ لم يكن بينهم سوى ثلاثة نقباء من الأوس، وهم : أسيد بن حضير، وسعد بن خيتمة، وأبو الهيثم ابن التيهان، وأنه عندما انتهى النبى (صلى الله عليه وسلم) من كلامه، ووصل إلى القول :«أبايعكم على أن تمنعونى مما منعتم منه أبناءكم ونساءكم»؛ تناول البراء ابن معرور - كبير القوم - يده وقال : «نعم والذى بعثك بالحق، نمنعك مما نمنع منه أزرنا؛

فبايعنا يارسول الله، **فنحن والله أهل الحرب والحلقة، ورثناها كابرا عن كابر**»، وهنا اعترض أبو الهيثم ابن التيهان الأوسى الأمر؛ قائلا : «يا رسول الله إن بيننا وبين أقوام حبالا، وإنا قاطعوها؛ **فهل عسيت إن أظهرك** الله، أن ترجع إلى قومك وتدعنا؛ فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) «**بل الدم الدم، والهدم الهدم**، أنا منكم وأنتم منى، أسالم من سالمتم، وأحارب من حاربتم... فأخذ البراء بن معرور بيد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فضرب عليها، وكان أول من بايع، وتتابع الناس فبايعوا»[٣]، ثم «أخذ عليهم العباس بن عبد المطلب المواثيق لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) بالوفاء، وعظم العباس الذى بينهم وبين رسول الله (صلى الله عليه وسلم) **وذكر أن أم عبد المطلب، سلمى بنت عمر بن زيد بن عدى بن النجار**»[٤]، وقبل أن ينصرفوا، أراد أهل الحرب والحلقة استعراض قدراتهم القتالية وفنونهم الحربية للنبى (صلى الله عليه وسلم)؛ فقال له ابن عبادة :«**إن شئت لنميلن غدا على أهل منى بأسيافنا**»، فأجّل النبى (صلى الله عليه وسلم) الإمالة بالسيف إلى مابعد الخروج من مكة بقوله :«لم نؤمر بعد»[٥]!!

وكانت أهم المهام بعد الهجرة إلى يثرب هى تحريم المدينة، وعقد المعاهدة مع اليهود، ثم الخروج إلى طريق التجارة لقطعه تماما على أهل مكة، حتى إن عبد الله ابن جحش استحل فيه الشهر الحرام؛ **إعلانا لمكة بانهيار مقبل فى هيكلها الاقتصادى**، واستولى على تجارة لها، وأخذ أسيرين، وقتل عمرو بن الحضرمى؛ فقالت قريش : لقد استحل محمد (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه الشهر الحرام، وسفكوا فيه الدم، وأخذوا فيه الأموال، وأسروا الرجال، وأكثر الناس فى ذلك، فأنزل الله تعالى على رسوله (صلى الله عليه وسلم) :«يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه

كبير... - ٢١٧ البقرة».[٦]

أما المهمة الجليلة والعظمى فكانت قيام النبى (صلى الله عليه وسلم) بإنشاء نواة أول دولة عربية إسلامية فى الجزيرة، محققا نبوءة جده :«إذا أراد الله إنشاء دولة خلق لها أمثال هؤلاء»، وبهجرته خفت أثقال الاضطهاد عن كاهل الهاشميين، مما سمح لهم بالتظاهر بالحياد، ومجاملة بنى عمومتهم أحيانا، كخروج بعضهم مع قريش إلى بدر، فى الوقت الذى كان فيه العباس يسرب لابن أخيه أخبار مكة أولا بأول، لذلك؛ كان الوفاء النبوى يجلجل فى نداء النبى (صلى الله عليه وسلم) لرجاله، فى غزوة بدر الكبرى، قبل هنيهة من الهجوم على أهل مكة :«إنى قد عرفت أن رجالا من بنى هاشم وغيرهم، قد أخرجوا كرها لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقى منكم أحدا من بنى هاشم فلايقتله، ومن لقى أبا البخترى بن هشام فلا يقتله، ومن لقى العباس بن عبد المطلب فلا يقتله، فإنه إنما خرج مستكرها - وإنما نهى الرسول (صلى الله عليه وسلم) عن قتل أبى البخترى بن هشام؛ لأنه كان أكف الناس عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو بمكة، وكان لايؤذيه، ولايبلغه عنه شئ يكرهه، وكان ممن قام فى نقض الصحيفة التى كتبت على بنى هاشم وبنى المطلب - فقال أبو حذيفة : أنقتل أباءنا وأبناءنا وإخواننا وعشيرتنا ونترك العباس، والله لئن لقيته لألحمنه السيف، فبلغت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مقالته فقال لعمر بن الخطاب : ياأبا حفص : أيضرب وجه عم رسول الله بالسيف؟ فقال عمر : يارسول الله دعنى أضرب عنق أبى حذيفة، والله لقد نافق!! فكان أبو حذيفة يقول : ماأنا بآمن من تلك الكلمة التى قلت يومئذ»[٧].

ويقول الأستاذ أحمد أمين: إن النبى (صلى الله عليه وسلم)؛ بعد النصر

فى بدر ارتحل حتى إذا كان بالروحاء، لقيه المسلمون يهنئونه بما فتح الله عليه وعلى من معه من المسلمين؛ فقال لهم سلمة بن سلامة : **ماالذى تهنئوننا به؟! فو الله مالقينا إلا عجائز صلعا كالبدن المعلقة، فنحرناها!!** فتبسم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ثم قال : ياابن أخى **أولئك الملأ**[8].

نعم، هكذا انتهى أمر الملأ، ارستقراطية قريش، ورجال الندوة وحملة اللواء!! وتهيأت الدولة لنشر جناحيها على أرض العرب، وعلى مكة ذاتها، الأمر الذى دفع العقاد للقول :

«نكاد نقول : إن العرب أقبلت على الإسلام أفواجا، حين صارت الكعبة إلى يديه، وأصبحت عاصمة العروبة، عاصمة الدين الجديد، ولو لم تكن للعرب وحدة معروفة بينهم قبل البعثة الإسلامية، لما اعتزوا بالبيت الجامع لهم هذا الاعتزاز»[9].

وهكذا؛ قامت الدولة الإسلامية، بجهود البيت الهاشمى، وفضل لاينكر لأهل الحرب والحلقة اليثاربة وخؤلتهم، لكن ذلك كله لم يفت فى عضد الحزب الأموى، فظل هؤلاء يترقبون الفرص، حتى مابعد اتساع الدولة بالفتوحات، وعندما سنحت الفرصة اقتنصوها، واستولوا على الحكم، وساعتها تجلت مشاعرهم تجاه بنى عمومتهم فى المجازر الدموية التى راح ضحيتها كل من أيد البيت الهاشمى؛ حتى امتدت يد الانتقام الحمقاء إلى حفدة المصطفى (صلى الله عليه وسلم) استئصالا لهذا البيت وأهله، ووصل بهم حد الهوس إلى ضرب الكعبة المشرفة بالمنجنيق؛ مشاعر عبر عنها لسان يزيد بن معاوية الأموى (منسوبا إليه عن قصيدة طويلة لأبن الزبعرى) :

لعبت هاشم بالملك فلا   خبر جاء ولا وحى نزل[10]

أو كما أورده ابن كثير :

لعبت هاشم بالملك فلا   مَلَكٌ جاء ولا وحى نزل[11]

هوامش الدولـــة

١- أحمد الشريف : مكة والمدينة، ص ٤١٥.

٢- الطبرى : التاريخ، ج ٢، ص ٣٦٥.

٣- البيهقى : دلائل النبوة، ج٢، ص ٤٤٧ و ٤٤٨.

٤- نفسه : ٤٥٤.

٥- الطبرى : ج ٢، ص ٣٦٥.

٦- أحمد أمين : فجر الإسلام، ص ٨.

٧- نفسه : ص ٢٢.

٨- نفسه : ص ٢٥.

٩- العقاد : طوالع البعثة المحمدية، ص ٦٥.

١٠- محمد القزوينى : فاجعة الطف، مطبعة الأهرام، كربلاء، ط ٩، د.ت، ص ٥.

١١- ابن كثير : البداية والنهاية، ج ٨، ص ٢٢٧.

مصادر استشهادات البحث

القــرآن الكــريم

١- الأصفهانى : الأغانى، دار الكتب المصرية، القاهرة، د.ت.

٢- الألوسى : بلوغ الإرب فى معرفة أحوال العرب، القاهرة، ١٩٢٤.

٣- ابن حبيب : المحبر، دار الآفاق الجديدة، بيروت، د.ت.

٤- ابن الجوزى : تلبيس إبليس، تصحيح محمد منير الدمشقى، المطبعة المغيرية.

٥- ابن سعد : الطبقات الكبير، طبعة لندن، ١٩٣٢.

٦- ابن سيد الناس : عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسير، تحقيق لجنة إحياء التراث العربى، دار الآفاق الجديدة، بيروت، د.ت.

٧- ابن عبد ربه : العقد الفريد، تحقيق د. عبد المجيد الترحينى، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ١٩٨٧.

٨- ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، ليدن، بريل، ١٨٨٦.

٩- ابن هشام : السيرة النبوية، تحقيق طه عبد الرؤوف ومحمد محيى، شركة الطباعة الفنية المتحدة، القاهرة، ١٩٧٤.

١٠- أمين، أحمد : فجر الإسلام، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط١٤، ١٩٨٧.

١١- البغدادى : خزانة الأدب، تحقيق عبد السلام هارون، دار الكتاب العربى، ١٩٦٧.

١٢- البيهقى : دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، توثيق د. عبد المعطى

قلعجى، دار الريان للتراث، القاهرة، ط١، ١٩٨٨.

١٣- ثعلب : شرح ديوان زهير، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٤.

١٤- الجاحظ : البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة، ١٩٤٨.

١٥- الحلبى : السيرة الحلبية فى سيرة الأمين المأمون، إنسان العيون، دار المعرفة، بيروت، د.ت.

١٦- الحوت؛ محمود سليم : فى طريق الميثولوجيا عند العرب، دار النهار، بيروت، ط٢، ١٩٧٩.

١٧- خليل؛ خليل أحمد : مضمون الأسطورة فى الفكر العربى، دار الطليعة، بيروت، ١٩٧٧.

١٨- الزبيدى : تاج العروس، القاهرة، ١٣٠٦ هـ.

١٩- السقاف؛ أبكار : نحو آفاق أوسع، الأنجلو المصرية، القاهرة، د.ت.

٢٠- السهيلى : الروض الأنف فى تفسير السيرة النبوية لابن هشام، ضبط طه عبد الرؤوف، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٨.

٢١- الشريف؛ أحمد إبراهيم : مكة والمدينة فى الجاهلية وعهد الرسول، دار الفكر العربى، القاهرة، ط٢.

٢٢- شلبى؛ أحمد : السيرة النبوية العطرة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط١٢، ١٩٨٧.

٢٣- الشهرستانى : الملل والنحل : طبعة البابى الحلبى، تحقيق محمد سيد كيلانى، القاهرة، ١٩٦١، والمطبعة الأزهرية، القاهرة، ١٩٥١.

٢٤- شيخو؛ الأب لويس : شعراء النصرانية فى الجاهلية، مكتبة الآداب، الحلمية الجديدة، القاهرة، ١٩٨٢.

٢٥- الطبرى : تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل، دار المعارف، القاهرة، ط٢، د.ت.

٢٦- العسقلانى: الإصابة فى تمييز الصحابة، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٣٢٣ هـ.

٢٧- العقاد؛ عباس محمود : إبراهيم أبو الأنبياء، دار الكتاب العربى، بيروت، ١٩٦٧.

٢٨- العقاد؛ عباس محمود : طوالع البعثة المحمدية، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٧٧.

٢٩- على؛ جواد : المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، المجمع العلمى العراقى، بغداد، د.ت.

٣٠- العمرى؛ أحمد جمال : الشعراء الحنفاء، دار المعارف، القاهرة، ط١، ١٩٨١.

٣١- القزوينى؛ أحمد : فاجعة الطف، مطبعة الأهرام، كربلاء، ط٩.

٣٢- الكلبى : الأصنام، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢، ١٩٢٤.

٣٣- منقوش؛ ثريا : التوحيديمان، التوحيد فى تطوره التاريخى، دار الطليعة، بيروت، ١٩٧٧.

٣٤- الهمدانى : الإكليل، بغداد، ١٩٣١.

أعمال للمؤلف

أولا : كتب منشورة

١- الموجز الفلسفي : دار السياسة الكويتية ، الكويت (نفذ).
٢- مشكلات فلسفية (بالمشاركة مع آخرين) : التربية الكويتية ، الكويت .
٣- أوزوريس وعقيدة الخلود في مصر القديمة : دار الفكر ، القاهرة .

ثانيا : كتب تحت الطبع

١- النبي إبراهيم والتاريخ المجهول : دار سينا ، القاهرة .
٢- في الأسطورة والتراث : دار سينا ، القاهرة .
٣- منابع سفر التكوين : دار الثقافة الجديدة ، القاهرة .

ثالثا : مختارات من بحوث مطولة منشورة بدوريات عربية

١- من الطوفان السومري إلى الطوفان النوحي : أفاق عربية ، بغداد ، ١٩٨٣ .
٢- إلهة الجنس أو الزهرة : أفاق عربية ، بغداد ، ١٩٨٢ .
٣- منذ فجر التاريخ والحج فريضة اجبارية : مجلة الكويت . ١٩٨٣ .
٤- البعد الاسطوري للشيطان في التراث الشرقي : فكر للدراسات والأبحاث عدد ١٠ ، القاهرة .
٥- الاضاحي والقرابين ، الجذور الاجتماعية : فكر للدراسات والأبحاث ، عدد ١١ ، القاهرة .
٦- ذو القرنين : الوهم، والأسطورة، والحقيقة : مجلة القاهرة ، عدد ٧٧ ، القاهرة.

٧- هل بنى الفراعنة الكعبة؟ مجلة القاهرة ، عدد ٨١ ، القاهرة .
٨- القمر الأب أو الضلع الأكبر فى الثلوث : مجلة الكارمل ، عدد ٢٦ ، نيقوسيا - قبرص .
٩- مدخل إلى فهم الميثولوجيا التورانية : مجلة الكارمل ، عدد ٣٠ ، نيقوسيا - قبرص .
١٠- وفى جزيرة العرب كانت جنات عدن : مجلة المنار ، عدد ٥٠ ، القاهرة .

المحتويـــات

رقم الإيداع

١٩٩٠/١٩٣٧

طبع بالمطبعة الفنية ـ ت : ٣٩١١٨٦٢

الحزبُ الهاشميّ
وتأسيس الدولة الإسلاميّة

عندما ظهر موجز هذه الدراسة لأول مرة منذ ثلاث سنوات، وأعيد نشره منذ فترة وجيزة، تباينت ردود الفعل، مابين القبول والتأييد، وبين الرفض والاستهجان بل والهجوم غير المتحفظ، وحتى الآن لم تهدأ الإثارة!

ودار سينا إذ تطرح هذه الدراسة الأصلية على حالتها الأولى، والتى تعد مدخلا يعكف الآن مؤلفه على توسعته، فإنها لاتبغى الإثارة قدر ماتبغى وقفة متأنية منصفة ، إزاء الجديد الذى يقدمه المؤلف هنا، سواء فى المنهج أو فى الرؤية، وإذا كان لكل جديد دهشة ، فإن هذا العمل - بأسانيده ، ووثائقه المدققة، وصرامته العلمية ، وقدرته الكبيرة على الربط والاستنتاج والكشف، ناهيك عن الجهد الأساسى فى جمع المادة العلمية المتناثرة ، ثم وضع ناتج ذلك كله، فى قالب موجز مكثف يسير التناول وسهل الفهم - على عادة مؤلفنا فى أبحاثه - لجدير بدفعنا إلى تجاوز الدهشة نحو ماهو أجدى، من أجل ابتداء صادق لبحوث جادة، ينقلنا بها الباحثون إلى طور آخر من التاريخ.

ولعل قيمة هذا العمل، تكمن فى تجاوزه الرؤى السائدة فى التعامل مع التاريخ والتراث، وطرحه جانبا - كل التهويمات والتهويلات والت[illegible] والتقييمات، ليأخذنا بهدوء فى نقلات متسارعة وبلطف شديد، حتى يصل[illegible] إلى النتائج التى ترتبت على تسارع المتغيرات ، وفعلها فى تطور المفاه[illegible] انتهت إليه من إفراز أيديولوجى ضرورى وحتمى.

وإذا كان ضروريا وحتميا ، أن تثير الدراسات الجادة والأصيلة رد[illegible] متباينة ، فإن دار سينا تفخر بتقديم هذا العمل للقراء.